لقاءات مسكونة

رواية

روان عبد الكريم

لِقَاءَات مَسْكُونَة

الكتاب : لقاءات مسكونة

المؤلف : روان عبد الكريم

تصميم الغلاف : إسلام علام

تدقيق لغوي : سارة صلاح

رقم الإيداع : 2014/21940

الترقيم الدولي : 978-977-778-009-4

الطبعة الأولى : 2015



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

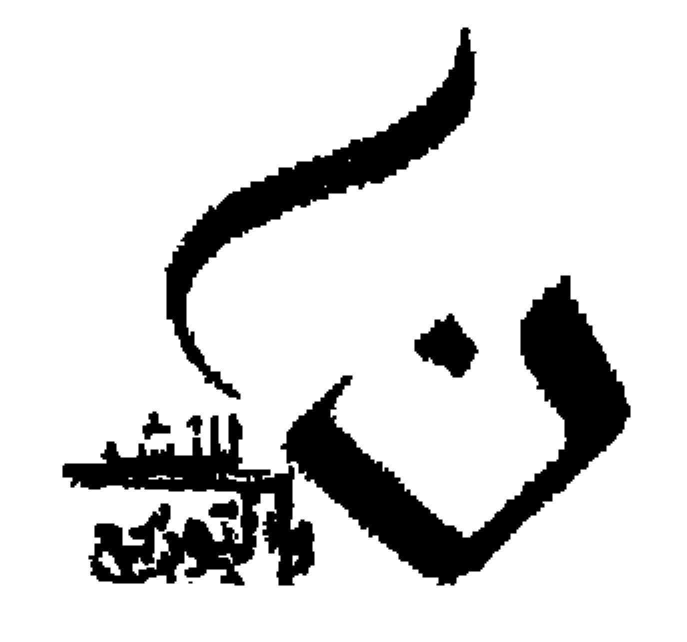
Noon_publishing@yahoo.com

لِقَاءَات مَسْكُونَة

عن أحداث رعب حقيقية

صاغتها:

روان عبد الكريم



إهداء

إلى يوسف الصغير،،

لعلَّ ما جمع بيننا أننا توراثنا نفس الهبة،،

وربما السر فيها أنَّكلينا لم يمكث في رحم أمه حتى الشهر السابع،
مما جعل لنا حساسية تجاه الأشياء حولنا، وولِدنا وما زلنا معلقين
بالعالم الآخر!

مقدمة

ما سأكتبه هو أحداث حقيقة مرت بي، سأبدأها من الأحدث للأقدم دون ترتيب حيث جرت احداثها في العديد من مدن مصر أرويها لأن لابد لي من روايتها، لستُ من هواة الرعب فحقيقة أنا أخاف من خيالي أنا مررت بها، ولعلّ الرعب لم يتملكني إلا بعدها، فالحدث نفسه لم يرعبني في أوان حدوثه، ولكن التذكر وتحليل الأحداث.. ومحاولة إيجاد تحليل منطقي، فلا أجدهو ما يرعبني أكثر.

الجزء الأول

قصص رعب حقيقة

- 1 -

سائر في الطريق

الفيوم شتاء 2010

عادة، عندما تطلب أمي شيئًا ما، فإنها تتغاضى عن كونها أمًّا لخمسة أشقاءوشقيقات غيري، وأني أحمل الرقم السادس. هو رقم بطبيعته ينتظر خارج أصابع الكف.. الجميع يحبه ..الجميع يضطهده .. فلنقل إذن ببساطة أنه رقم مغلوب على أمره.

وكان طلبها أن نسافر لحضور أحد الأفراح في إحدى القرى القريبة (للغاية) من القاهرة، بمدينة الفيوم.هذه الرحلة اليسيرة تستغرق ساعة ورُبعا على الأكثر؛ لكنها من أثقل الأمور على نفسي؛ لأنني لا أتفق أبدًا مع غطرسة العائلة، التي تتباهى بالممتلكات والأراضي والأصل العربي: بالإضافة إلى العادات والتقاليد الصارمة التي تمنع لبس النساء للسراويل..

كل هذا لم يمنع أن حفل الزفاف كان مبهجًا، وخاصة مع الطعام الريفي الرائع، ورقص الحصان، ورقصة الحجلة لعجائز العائلة الطيبات. لقد مرَّ الوقت بأفضل مما تخيلت كثيرًا، وانشغل الكل مع الكل،

توقعت أنني بعد انتهاء الحفل -في الواحدة صباحًا- سأتعرَّض لموجة من التقريع واللوم، كالعادة.. اذا ما حاولت الرحيل ، وقد انفض السامر ولم هناك ما يشغل أعينهم عنّي.انتهزت غفلتهم التي لا زالت مع فض المجلس، وتسللت إلى السيارة، وضعت المفتاح في الكوناتكت وأنا أصرخ بأعلى صوتي:

- عندي شغل بكرة.

ركبت أمي وشقيقتي إثر صوتي العالي، الذي أثار الاستهجان الشديد، و.. هربت.. نعم، هربت قبل الموقعة، وقبل الكلام الموجع الذي يسلخ بداخلك أي إحساس، ولا تفهم لماذا لا يمل البعض من تكراره.

كانت حقًّا ليلة مظلمة، حتى أظن أنني لم أر حينها نجومًا في سماء الطريق الصحرواي. وفي نحو الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، كنت قد قطعت نصف الطريق، معي أمي الغاضبة الصامتة، وأختي المستاءة من انصرافها وعدم المبيت. أدرت المذياع على إذاعة القرآن الكريم، علّي أبدد رهبة الليل المخيف؛ إلا أن المؤشر لم يلتقط سوى همهمات غير مفهومة. بعث بداخلى حالة من عدم الراحة، رغم كونه اعتياديًا على الطرق ما بين محافظات مصر، ثم حانت منّي التفاتة عابرة اعتدتها على مؤشر الحرارة والبنزين، ليكتمل انعدام الراحة بالمفاجأة الصاخبة، حيث أن البنزين لن يحتمل أكثر من ثلاثين كيلو إضافية، والمتبقي لنا من الطريق 55 كيلو!

أملت أن تظهر محطة بنزين في هذا الطريق المقفر الخالي من أي ضوء، وقد أنبأتني الزفرات الحارة المنبعثة من جانبي وخلفي أن أدنى كلمة عن الوضع الراهن سوف تثير عاصفة عاتية من الغضب.

انشغلت عن كل هذا بمراقبة الطريق، تاركة ما يحدث لحين يحدث.. ومع التفاتة للمرآة الجانبية، لمحت هذا الشخص الذي يسير مترنحًا بحذاء السيارة، وقد تبللت ملابسه وتجعدت على نحو غريب، بينما لمعت عيناه في مرآة السيارة مع خطواته المهتزة المترنحة.

استغربت من هذا الفتى، الذي يسير في طريق مظلم مقفر، في مثل هذه الساعة، على بُعد خمسين كيلو متر من أي عمران أو بناء.

التفتُّ جانبًا إلى أمي، وتساءلت في دهشة:

إلى أين يسير؟

فقالت: من؟

- هذا الفتى الذي بجوار السيارة.

نظرت أمي وجلة، وقالت: لا أحد!

- ولكني أراه في المرآة!

ضحكت أمي ضحكة جافة، بينما صمتت شقيقتي تمامًا، فلم أجد ما أضيف أو أصر عليه مقابل عدم الاعتراض. - تلك الحالة التي تجبرك أن تصمت . وقبيل نفاد الوقود بقليل، وجدت محطة البنزين.

وصلنا القاهرة بعدها بخمس عشرة دقيقة. كان السؤال عالقًا بحلقي خانقًا وضاغطًابشدة :

- أمي، أحقًا لم تشاهدي الفتى الذي يسير بجانب السيارة؟

لم ترد، كانت غاضبة من تصرُّفي المشين -من وجهة نظرها-مع العائلة الكريمة. فنظرت لشقيقتي، التي قالت بهدوءٍ وضحكة خضراء، تحولت تدريجيًا للصفراء:

- روان، كم كانت سرعة سيارتك في الطريق؟

- نحو المائة والعشرين.

- طيب، هل يوجد بشري على الإطلاق يعدو -وليس حتى يسير- بسرعة مائة وعشرين؟

اتسعت عيناي بوجلٍ..

- إذًا، من كان هذا؟

- ماذا تقصدين؟

ضحكت بخبث وتشفٍ واستطردت:

-خيالك الواسع، أو لنقل عقابًا مناسبًا لك.

حتى هذه اللحظة، أتساءل عن كيفية حدوث هذا الأمر، وقد سألت الكثير من السائقين، خاصة سائقي عربات السياحة، الذين يعودون ليلًا في الطريق وحدهم، بعد توصيل الفوج إلى الفيوم. سألت.. ببساطة.. عن فتى يسير بجانب سياراتهم على الطريق.. كنت أعتبره سؤالًا ساذجًا، سيقابلونه بالتهكم.. إلا أن كم الحكايات المفزعة التيرواها هؤلاء المحظوظون بالقيادة وحدهم علىالطرق السريعة ليلًا، جعلت شعري رأسي يقف.. وأعماقي ترتجف من الخوف

.. وقد حكى لي أحدهم أنه وجد زميله المتوفي منذ عام يحادثه، ويجلس على نفس الكرسي الذي توفي عليه وهو عائد في طريق الزعفرانة الغردقة في الثالثة صباحًا. يحادثه بكل بساطة ان يقلل من ضغط قدمه على دواسة البنزين!!!

* * *

- 2 -

لقاء في المقابر

مصر الجديدة2009شارع أحمد تيسير

هذا اللقاء الجماعي، سواء لعدد الأشخاص، أو عدد الأشباح قليل الحدوث.

مجانين هم من يزرون المقابر ليلًا، ولكن الأمر تم بشكل عفوي.. عفوي للغاية. لنا عائلة صغيرة، مكونة مني ومن شقيقتي وابنتي.. ومن شقيقتى الأخرى وزوجهاوابنتها. وغالبًا ما نذهب في نهاية الأسبوع للسينما، أو تناول العشاء في منزل أحدنا أو الانطلاق بسيارةواحدة للتجول في الشوارع الهادئة ليلًا. هي عادة لتخفيف ضغط العمل في نهاية الأسبوع:لا أكثر ولا أقل.

لكن ماحدث هذاالخميس بالذات، جعل هذه العادة تتراجع، ، لتصبح شهرية، وفي أضيق الحدود.

كان زوج شقيقتي هو السائق، في ليلة منعشة في منتصف أكتوبر 2009، في شارع أحمد تيسير (كلية البنات)لنتجه لسينما طيبة مول.. الجميع

يثرثرون في مرح، غير منتبهين للطريق، حتى قرر فجأةتغيير المسار الاعتيادي لنا لقطع الملل الأسبوعي، والمرور بمقابر مصرالجديدة - من ناحية المصرية للسيارات، لمن يعرف المكان-.

إنها مسافة يسيرة للغاية، لا تستغرق أكثر من دقيقة بالسيارة، في شارع قصير معبَّد، على جانبه الأيسر تقبع المقابر المظلمة بشوارعها الواسعة الخاوية المعبدة. بدت حينئذ كمدينة كاملة تقبع في الظلام، المقابر فيها أقرب للفيلات لفرط فخامتها، حتى إنني شاهدت هناك قبرًا مكيَّفًا، علمت أن صاحبه خليجي، وقد ترك سيارته مرفوعة أمام القبر، حتى يجدها حينما تقوم قيامته. لقد كنت أظنها دعابة سمجة ممن حكوا لي ذلك، حتى شاهدتها بنفسي.

محظوظ أنت لو مررت بمدينة القبور/القصور في الليالي القمرية، فترى ذلك المعمار. لكن كان ضوء القمر شحيحًا هذه الليلة.. وكان هذا حظنا، أو قدرنا الذي اخترناه، حين ذهبنا إليها بأنفسنا..

بالتأكيد، حين نزلنا من بيوتنا يملؤنا المرح، لم يدرِ بخدلنا أن زوج شقيقتي سوف يدع موعد السينما، ليبطئ بالسيارة هنا فجأة لعله رأى في المقابر فيلمًا أكثر إثارة، ثم يتوقف، لتنطلق شهقاتنا من مرأى القبور الشائهة.ارتفع صوت أختي حادًا وهي تسأله أن يكمل المسير، ويخرج بنا إلى الشوارع العامرة، وأن يكف عن التهريج.. إلا أنها لم تستطع أن تتبنى الحدة طويلًا، حين قاطعها ما أفزعنا وأطار ألبابنا.. لقد تعالت من المقابر أصوات صراخ مهولة.. بدأت خافتة، اختلطت بصوت أختي، ثم تعالت وخفت صوت أختي أمامها.. حتى تعالت وسكتت حتى أصوات أنفاسنا أمامها!

ثم خفتت.. رويدًا، كسيمفونية مجنونة.. يخفت إيقاعها ثم يرتفع بانتظام.. ثم تعاود الانخفاض ثم الارتفاع.. فتحرك الأرواح والقلوب معها.

لكنها ليست سيمفونية موسيقية، لتتحرك أرواحنا معها في سلام.. إنهاصراخ بشري مريع أخذ أرواحنا حتى كادت تفارقنا.وكانت كأن لها تأثير الشلل على الأعصاب، فلم يأتِ أينا برد فعل واحد.

ثم كان زوج أختي أول من تخلص من تأثيرها الرهيب، وضغط دواسة الوقود وطار بالسيارة يفر بنا من هذا الجنون.

ألجمتنا المفاجأة، ثم - بعد أن اطمأننًا لابتعادنا، وللعمران من حولنا، طلبنا منه التوقف. توقفنا بضعة لحظات لاستيعاب الأمر.. تناقشنا قليلًا.. وكشباب لم يتعود الخضوع لما لا يقنع عقله، اتخذنا قرارًا مجنونًا بالعودة.

لقد أردنا فقطالتأكد من حدوث ذلك الأمر، فالمنطقة تقبع وسط العمائر السكنية المكتظة، ولو كان هذا الصراخ حقيقيًا، لما سكن كل أولئك الذين تضيء شبابيكهم المكان.

واستدار بالسيارة سائقها.. وعاد إلى حيث كنا.. ولكننا كنا مستعدين هذه المرة..لقد كنا مستعدين فقط.. لأن نخاف.

ولم نر سوى القبور القابعة تحت ضوء شحيح للقمر، وبعض الريح المثيرة للأتربة.. ثم كان نفس الشيء.. نفس كورال الصرخات المعذبة يستفز أوراحنا للمشاركة معه في سيمفونيته القميئة، ويشل أعصابنا عن رد الفعل أو الفهم.

هذه المرة، حين تمالك زوج أختي أعصابه، فرَّ بنا دون انتظار لرأي أو نقاش.. ولم يكن أيّنا يجرؤ على المعارضة.. ولا يرغب فيها من الأساس. حتى هذه اللحظة، لا تفسير لدينا لما حدث في المرتين ولا مصدر اصوات الصراخ المريعة القادمة من اعماق القبور

فقط أردنا اللهو، فتلهى بعضهم بنا!

* * *

- 3 -

أشباح منزلية

هذه المرة ليست قصة، بل مجموعة حكايات قصيرة، عن أشباح تسكن شقتنا.. هي أحيانًا شقية، تخفي الأشياء التي لا تعود للظهور سوى بذِكر الله، أو تحيل نومك الهادئ لإزعاجٍ مستمرٍ، خاصة مع ذوي الأعصاب المرهفة، قليلي النوم.

القصة الأصلية.. شقة في مصر الجديدة

تمامًا على طريقة الفيلم.. الأفلام الكثيرة أعني، حيث البطل الذي يحصل على شقة بسعر جيد في مصر الجديدة، وجدت ضالتي في تللك الشقة ذات الشرفات المتسعة، المطلة على شارع فسيح تظلله الأشجار، ولا تكاد تلمح البشريمرون فيه بعد الثامنة مساءً.

الرقي، الهدوء، الاتساع، الخضرة.. و.. و.. هذه مميزاتها. لكن لأنها شقة جيدة، واسعة، في مصر الجديدة، على شارع راقٍ، وبسعر جيد، فلابد أني مازلت أتذكر أن الشقة حين استلمتها كانت سوادء الجدران نتيجة لحريق!

تقبلت الأمر حينما أخبرني صاحبها أنهم كانوا يستخدمونها هو وعائلته

للشواء، يصعدون وضيوفهم من حيث يقطنون في دور السفلي، لحفلات "الباربيكيو". ولذا فقدرفضوا تأجيرها على مدى خمسة وعشرين عامًا،ولم يقبلوا إلا هذه المرة -الأولى على الإطلاق- لتكون من نصيبي. كانت المفارقة أن الشارع يحمل اسم أبي(هل تصدقون مقولة أن الأماكن تختار أصحابها؟)

غاية الأمر، أصلحت الشقة وطليت الجدران بلوني الأبيض المفضل، وظللت عامًا كامل أنتظر..

تسألونني لماذا؟

أجيب

وهل من المعقول أن شقة تبيت خمسة وعشرين عامًا بلا زوار؟.. لا، لا أقصد هؤلاء الذين يأتون للشواء؛ بل أقصد أن الخلاء مُغرٍ دائمًا بالاستيطان لسكان العالم الاخر .. ألا تظنون معي أن حادث الحريق كان غضبًا من سكان الشقة على من يقلقون راحتهم باحتفالاتهم ونيران شوائهم؟ وأنا.. بكل بساطة، استأجرت مكانهم، لأزاحم ذكريات ربع قرن لهم هنا.

وعلى طريقة حدث بالفعل،عرفت بوجودهم من اختفاء الأشياء.. من الشجار على أتفه الأسباب.. من ارتفاع حرارة الحمَّام ليلًا.. ومن احتراق مصباح الحمَّام بعد يوم على الأكثر من كل مرة أغيِّره. (مازال محترقًا حتى كتابة السطور)

دعوني أحكي لكم بعض ما حدث..

ابنتي الطفلة

كثيرًا ما انبأتني صغيرتي عن الرجل ذي البزة البيضاء، الذي يقف أمام المرآة ليتأنق.. لم تكن تخافه، بل كانت تبتسم وتقول أنه بدا سعيدًا، وربما يكون ذاهبًا لمراقصة الأميرة.

أما عن الرجل الذي يدلف من المطبخ إلى الحمَّام، فهذا بدا لها أمرًا طبيعيًّا؛ فمن ذا يمكنه الاستغناء عن الحمَّام، وخاصة بعد الأكل في المطبخ؟!

توقفت ابنتي عن تلك المشاهدات، بعد أن بلغت الثامنة، وصارت أكثر إدراكًا، أو إنكارًا.. لا أدّعي الجزم في تلك النقطة.

أختي

تروي لي شقيقتي -وهي من أشد المهاجمين لوجهات نظري حول تلك المسائل الـ. إحم.. التي نتحدث عنها هنا- روت لي أختي على أي حال أنها.. وبينما هي نائمة وحدها في الغرفة الخلفية، وقد أزف الوقت إلى الثالثة صباحًا، كما يعلن منبه جوالها الملقى بالجوار. طال الازيز، ففتحت عينها ونظرت إليه، مدَّت يدها لتغلقه، وقبل أن تتلاشى إضاءته، فتحت عينها عن آخرهما متفاجئة فوق رأسها بشجرة وليس السقف بأي احتمال. أغمضت عينها تطرد الوهم، الأكيد أنه وهم، ثم عادت تفتحهما، فوجدت الشجرة قد ابتعدت عند المرآة، ثم تلاشت بداخلها!

بالطبع، ولأنها تصر أنني مجنونة، فهي تصر أيضًا أن المنبه لم يرن، وهي لم تستيقظ، والشجرة لم تكن هنا، وربما يومًا ما ستقول إنها لم تقل شيئًا من ذلك وأنني -المجنونة- أتوهم أنها فعلت!

ابن شقيقتي

وهو في الخامسة والعشرين من عمره؛ أتى يومًا لزيارتنا، فمضى بنا الوقت وتأخر، فألححنا عليه في المبيت. ولأنه الشاب الرجل، فقد نام في الصالة وتركناه إلى حجرات نومنا.. وأغلقنا أبوابنا.. و...

أمام المرآة كانت الأريكة، فنام مواجهًا لها. نام!.. هو فعل لم يتم في الحقيقة، فقد زاره أمير ابنتي الذاهب - في ظنها- لمراقصة الأميرة. أنه ليس خطأ أحد إلا من ظلّ طوال الليل يراقب المرآة.

حين استيقظنا، كان في انتظارنا ليحكي لنا عن الرجل ذي البزة البيضاء.. وحين وجدنا نسمع ونبتسم والصغيرة تكمل له ما فات عليه من وصفٍ.. لم يكمل الحكي، ونظر لها كحمقى لا يدركون معنى ما يدور من حديث..

ورفض أي محاولة ثانية للمبيت لدينا!

حكاية القطة لميا

حدث هذا وكانت إحدى الصديقات لدينا، ولاحظت أن لميا وهى قطة من اقبح ما يمكن ان تراه فى حياتك تجري في عصبية.. قلقت في مجلسنا وسألتنا عما إذا كان في بيتنا فأر أو صرصور. ضحكنا، فليست تلك أول مرة تجري قطتنا القبيحة المشاغبة بهذا الجنون. لكن بعد ربع الساعة تقريبًا، كانت لم تزل على حالها، وقد انتفش شعرها، وبدت تختبئ مما يطاردها وليس العكس. قوست ظهرها أقصى ما استطاعت، واتسعت عيناها غاضبتين أو مرتعبتين، لم نستطع التأكُّد. ظلت تموء بقوة وبحة غريبة، وتتراجع إلى الحائط أسفل الكرسي، وهي تنظر إلى ما لم يرَه غيرها، ولا تستجيب لنداءاتنا، بل كانت تهم بإيذاء من يحاول الاقتراب منها.

ثم هدأت.. وبسطت جسدها.. هزت ذيلها قليلًا، ودخلت إلى ركنٍ لتنام طويلًا!

مشاهداتي الخاصة

في بداية سكني لهذه الشقة، أفزعتني تلك السيدة التي كانت تقبع فوق رأسي، إذا هربت من قيظ الصيف ونمت في الصالة.كنت أشعر بثقل أنفاسي، حتى يفر النوم وأستيقظ لاهثة مذهولة، فيبدو أن ذلك ضايق زائرة الليل أو يقاطعها بشكل ما، فتنصرف -دون تحية- عبر الشرفة، وتختفي في بهيم الليل!

أما عن الغرفة الخلفية، فهي تلك التي لا يمكن النوم فيها مطلقًا، رغم أنها أكثر غرف المنزل اتساعًا وبراحًا. في هذه الحجرة شاهدت بعينيَّ إنسانًا له وجه كلب أسود.. لا لم يكن انوبيس يزورني ويشجِّع السياحة.. لم يكن يشجِّع أيَّ شيءٍ على الإطلاق، سوى مشاعر الرعب المريعة.

أحقًا تسألونني المغادرة؟ أضحك وأقول لن أجد أبدًا مثلها.

كيف إذن أنام؟ حسنًا، لقد وجدت طريقة بالتأكيد، فما كنت لأعيش مستيقظة طوال الليل والنهار. إنني أضع المصحف فوق رأسي، ثم أطرد القطة خارج الغرفة.. ليست قسوة منِّي، وإنما هي السبب، لأنها ببساطة تتشاجر معهم طوال الليل.

أما أيام ثورة يناير 2011، فقد صارت الشقة أكثر صخبًا او معبرا للأشباح، وكان من الأمور الاعتيادية أن تشاهد القطة عبر فتحة الباب تأتي من اتجاه الحمَّام إلى الصالة، ثم مرة أخرى من الحمَّام للصالة

أيضًا، دون أن تمر بالاتجاه العكسي، وكأنني أملك قطة وشبحها، أو أشباحها.

يوسف ذو العامين

هذا هو أصغر أفراد عائلتنا الصغيرة. وهو من له إهداء هذا الكتاب. يوسف هو أكثرنا إحساسًا بأولئك الذين يشاركوننا الحياة، والسكن، وربما هم في الحقيقة من يتكلم عن سكان الأبعاد الأخرى.

أما أطرف ما كان مع يوسف، فهو حين يأخذني من يدي إلى الشرفة، ليشير إلى عمو الجالس في ظلمة الدور الأخير، للبيت الخالي من السكان أمامنا، ثم يعود ليشير لعمو وقد ذهب لمكانٍ آخر، وآخر، وآخر.. ولقد توسلت لعمو الذى يطير بكل اريحية أن يبتعد عن الصغير، لأنه سيفضحه.. هو صغير السن، لكن فضيحة؛ أو هكذا عادة صغار السن يفضحون الكبار دون اعتبارات لا يقيمون لها وزنًا.

يا عمو.. لقد أخبرني يوسف عنك، حين كنت في الحمَّام تجلس فوق قاعدة التواليت، وتشير له بيدك بحركات بذيئة. نعم لقد قال، فاحذر، وتجنب فضائح يوسف.

أما عن احتكاكي المباشر بهم، فلهذا قصة سأرويها لكم ..ليست مرعبة على الإطلاق.

ماذا رأت القطة؟

كانت ليلة صيفية شديدة الحرارة، من تلك الليالي التي يغادر فيها سكان أي منزل جدرانه سعيًا لقليل من الهواء في أي مكانٍ مفتوح أو حتى في الشوارع. ومثل سائر الناس، قرر الجميع الخروج، إلا أن ارتفاع درجة

حرارتي المفاجئ منعني من الخروج معهم. ولكرهي المعروف للتكييف والمرواح،وإيماني بمبدأ التفاعل مع الطبيعة، قررت النوم على الأريكة الموجودة بالشرفة الواسعة حتى وصولهم.

لم يكن ليؤنسني في وحدتي تلك الليلة سوى القطة الصغيرة القابعة بجانبي، والتي يزيد التصاقها بي نوعًامن التلهي، بعد أن تعبت من محاولة عد النجوم التي يحجبها ستار التلوث القاهري. وقد غلبني فوق حرارتي المرتفعة بعض الصداع، فذهبت من شدة إرهاقي في إغفاءة خاطفة، ساعدني عليها ترتيل القطة بصوتها المنغم، حتى أفقت من غفوتي عطشى، وحبيبات عرق تلدغني، وخدر ينتاب جسدي بأكمله.

لم يكن العطش ما أيقظني، بل مخالب القطة المتشبسة فيَّ باستماتة. ربتُّ عليها، وسألتها عمَّا بها. يعرف من يربون القطط أنهم يكلمونها ويسألونها، ويعتقدون تمامًا أنها تستمع وتدرك وربما تجيب أيضًا. سألتها، فلم تجب، وإنما قد ثبتت عينها في ذعر تنظر فوق رأسي مباشرة.

التزمت السكون، واستمرت القطة في التحديق وإغلاق عينيها في استعطاف لعدة دقائق، ومضى عقلي يبرق بألف فكرة، ليس من بينهن بالطبع أن أجترئ على إدارة رأسي حيث تنظر.

حسنًا، فنلعتبرها قطة مخبولة.. ربما تنظر لحشرة.. من النوع الثابت في الطيران.

هل يوجد هذا النوع؟

من يدري.. لسنا خبراء في علم الحشرات..

ولا علم الزواحف بالطبع!

فقد تحركت عينا قطتي المذعورة بطول جسدي، على شيء يزحف ببطء.. شيء لم أشعر به. ولكنها شعرت..

لقد كان شيئًا أرعبها، حتى إنها تخلت عنّي في النهايةوانتفضت مذعورة لتختفي بعيدًا.

أكملت أنا نومي بعدها، أو ربما غلبتني حالة من الغياب اعتبرتها نومًا.. فلنبسط الأمر ولنقل إنني تظاهرت بالنوم، ولتتظاهر عزيزي أنك تصدقنيأخيرًا، سمعت مفتاحًا يدور في الباب، وصوت أختي تقول في مرح- انتي نمتي؟ لسه تعبانة؟ فاتك نص عمرك!!!!

* * *

- 4 -

قصة سيارة مسكونة

أعرف أنني من القلة المحظوظة بسكني في شقة مسكونة، ليكتمل حظي بسيارة مسكونة أيضًا.

كانت سيارة همت بها عشقًا ثلاث سنوات. جميلة هي.. حين رأيتها، أو هكذا رأيتها جميلة، أبدلت بها سيارتي البولو ذات اللون الأخضر الزاهي، لأحصل عليها بلونها الفضي اللامع، تلك الـ"هيونداي إلنترا" بفتحة سقف مميزة طويلة.

جميلة بشكل البجعة.. لماذا لا يرى الآخرون الجمال الذي أراه فيها؟

ولماذا بدأ الشجار بيني وبينهم منذ اشتريتها؟

لقد حصلت عليها بسعرٍ رائعٍ، مع وعد من صاحبها بتغيير الرخصة باسمي.. هذا الوعد الذي استغرق ثلاث سنوات من الإلحاح ولم يُنفَّذ، متعللًا صاحبها بسفر والده الدائم.

وللحق، كان يجدد الرخصة ويسلمها لي، فلم أعر الأمر اهتمامًا. خاصة وقد قال لي إنني حينما أنتوي البيع عليَّ أن أخبره ليخلص الأوراق

للمشتري التالي.خلوق هذا الفتى، وهو معرفة أحد أصدقائي الذين أثق بهم.

لن نربط السيارة بالأحداث التي مررت بها فترة الثلاث سنوات، التي رافقتني هي فيها. لم أخذ أبدًا بعين الاعتبار قول أمي "عربية وش فقر".. كنت أضحك من قولها "ادبحي عليها أرنب".. كيف أذبح أرنبًا، وأنا أعتبر الأرنب قِطًا متحوِرًا؟!!

ذات مساء، وأنا أقف في الشرفة مع أختي، وأنظر إليها من الشرفة مبهورة بلونها تحت ضوء القمر، أعني بها سيارتي بالطبع، اكتشفت أن أختي تحمل نفس رأي أمي وإن كانت أكثر حدة. لكن كل هذا لم يغير بداخلي الإحساس تجاه السيارة، ذلك الذي لم ينغصه حتى إحساسي بالرجفة وأنا أركبها، ولا إحساسي الدائم بوجود رفقة ما بجواري وأنا أقودها وحدي.

هذا الشعور العجيب كان يزداد لدى مروري بمنطقة المقابر. كنت أتفاعل مع رفقة شخص لا تعجبه قيادتي،وأكاد أشعر بتأففه. كان صخبه يزداد إذا تحدثت في الموبايل أثناء القيادة - يبدو لي لفرط التزامه بالتأفف لمخالفاتي أنه شبح قانون المرور!

وكان أحيانًا يسجِّل اعتراضه متمردًا على صمته. فأجد المذياع يعمل من نفسه فجأة، أو أشعر بتيار شديد البرودة يقتحم ذراعي بغتة إذا لم أتفادى أحد المطبات، بل في أحد الأيام زاد غضبها لاستهتاري، فكان زر فتحة السقف يفتح من تلقاء نفسه حينما أركب ويغلق حين أنزل. ورغم

كل هذا،كانت سيارتي صديقتي، أتحدث إليها كل صباح، وأشكو وهي تستمع بصمتها المعدني يخبرني ارتطام الرياح بتفهمها.

حالة الوفاق هذه تغيرت فجأة.. كان ذلك حينما قررت أنها بحاجة للتجديد،وأدخلت قراري محل التنفيذ، فذهبت وعادت أبهى وأجمل. شيء في ذلك أثار غضبها، فصارت تريني منها شيئًا من التمرد ورفض التحرك والعناد الصباحي. المحيّر، الذي فاق استيعاب الميكانيكي، أن لا شيء بها، حت بأنه كان يردف في كل مرة في كل مرة أذهب بها إليه، أو أستدعيه لمكانها وهي تأبى التحرك: تخلصي منها.

لكنها، وكما تمردت فجأة، عادت أليفة فجأة! قلت: لعلها تتوق لرحلة إلى الإسكندرية، ليجري الزيت في أوصالها بعد شهر من التجديد. فكانت رحلةجعلتني أرفض القيادة لأي مدينة خارج القاهرة مدى الحياة.

مع دخولي الطريق الصحرواي، الساعة السابعة مساءً، نامت العجلة الأولى،وفقدت هواءها، حتى إنها تمددت على الأرض بلا مقدمات. حسنًا، هي فقط صدفة تحدث في أحسن السيارات.

تم التغيير

مسير

مع أول بنزينة تم نفخ العجلة الأولى

مسير

العجلة الثانية على الأرض

تم التغيير

مسير

تم نفخ العجلة في بنزينة

وهكذا.. كانت رحلة تغيير العجلات الأربع، قبل أن أعبر بوابة الإسكندرية في الرابعة صباحًا أخيرًا، و...

توقف الموتور عن العمل!

مات الموتور.. فقدَ حياته، ولا أمل في أي إنعاش.. تركني وحيدة على الطريق مع كتلة مصمتة من الحديد، بينما تقبع هي اى سيارتى كتلة المعدن المينة مبتهجة لامعة تحت رذاذ المطر..

نعم، كانت مبتهجة وهي عائدة للقاهرة محمولة على عربة ونش خاصة، بينما الغيظ يأكل قلبي، وأنا من أتيت كل هذا الطريق لأجلها.

حين وصلنا، تم تغيير الموتور، ثم فترت علاقتي بها، بل عافت نفسي قياداتها مرة أخرى، فأنا لا أحب الخسة والنذالة. وتم البيع بحضور المالك الأصلي كما وعد، نيابة عن أبيه العجيب، أن حبي لهذا النوع من سيارات "الإلنترا" تجدد مرة أخرى وأنا أشتري واحدة جديدة حمراء، أحدث من طليقتي بعشر سنوات، وأغلى منها بخمس مرات..

ولكنها لم تملك ربع جمالها ولا رشاقتها ولا انسيابها على الطريق.

مرت الأيام، حتى كانت الصدفة وحدها ما جعلتني أفهم سر هذا التعلق والشوق الغريب بكتلة من الحديد، حينما صادفت مالك عربتي القديمة في محطة تنظيف السيارات وبجواره أمه. سلمت عليها بعفوية، وسألته

بعفوية أكثر إن كان قد أعطى المالك الجديد ترخيصًا باسمه، وما إذا كان الوالد قد عاد من الخارج أم لا..

وإذا بأمه تقول باستغراب:

- توفي والده منذ عشرة أعوام يا ابنتي!

راقبت وجهه المحمر وأنا أبتسم من الغيظ.. فكرته أنه لابد قد توفى في السيارة "الإلنترا" الفضية، لكنني لم أجرؤ على السؤال. لكنها أعطتني الإجابة وقد دمعت عيناها وهي تقول:

- ظلّ بداخلها إثر وفاته بذبحة صدرية.. خمس ساعات وهو ميت في السيارة أسفل المنزل ونحن لا ندري.

مسحت دموعها وأكملت:

- الحمد لله أننا تخلصنا منها.

قلت بصفراوية، وأنا أتعهده بالويل والثبور:

- الحمد لله أننا جميعًا تخلصنا منها.

* * *

- 5 -

سانت كاترين شتاء 1999

هذه القصة جرت أحداثها منذ كنت حديثة التخرج، قليلة الخبرة في أحوال الحياة، وقد التحقت بإحدى شركات السياحة الإنجليزية للعمل كمنفذة برامج سياحية، وهو عمل مكتبي لا أكثر.

وحتى كتابة هذه السطور، لا أدري ما سر هذه الرغبة المجنونة التي دفعتني ذات يوم أن أطلب منهم قيادة إحدى المجموعات السياحية لسانت كاترين.. أكان شوقًا دفينًا لأعمق أعماق سيناء؟.. أم لهفة للوادي المقدس طوى؟.. أو هو السعي البشري الطبيعي وراء ما تخبئه الأقدار؟!

وإذا كانت رغبتي مجنونة، فالأغرب أن يصادف جنوني موافقتهم، وأنا التي بلا شيء يؤهلني للقيادة العملية بعد، وخاصة مع شركة إنجليزية لها سمعتها وتاريخها.

وصلنا سانت كاثرين، الغافية في أحضان الجبل، حيث شمس الصباح تعادل شمس ا لظهيرة في القاهرة الخانقة. لكننا وصلنا عند الغروب، فلم تكن الشمس مزعجة لنا بعد. كنت مع مجموعة ممن تخطوا الستين

عامًا من الشابات والشباب الإنجليز، أتو بالتأكيد ليتحركوا - كثيرًا- لا ليسكنوا الهدوء. ولذا فقد شمل برنامج الرحلة صعود جبل سانت كاثرين، لقطع نفس الرحلة التي كان يقطعها موسى عليه السلام عدة مرات يوميًّا. وفي الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، الشديد البرودة، تجمعنا في بهو الفندق متدثرين بملابس الإسكيمو. وفي الثانية تمامًا، كنا في أحضان الجبل المظلم، يعلِّق كل منا مصباحًا صغيرًا في رقبته. لا لم تكن رحلة تسلُّق، بل في الأساس هو المشي. المشي لما يزيد عن الثلاث ساعات ونصف..

في دروب جبل متسع مخيف، وفي ليلة حالكة الظلام، باردة برودة شعت في كل أوصالي -فلم أعتد أبدًا هذا المناخ الثلجي في مصر- كنت قائدة رحلتي الأولى، على فوج من الأجانب أحمل سمعة السياحة المصرية على كتفي!

الكارثة، التي أدركتها لحظتها، أنه لاخبرة لي على الإطلاق!

لقد منَّيت نفسي أنني سأتبع أحدًا لديه الخبرة والدراية بدروب الجبل في الثانية فجرًا؛ لأكتشف -بكل هلع- أنني في المقدمة، وخلفي مئات من المصابيح المضيئة!..

ارتجفت، وصارت أعماقي تغلي رغم البرودة القاتلة، وصوت يدوي بداخل عقلي يسأل: من هؤلاء؟ مجموعتي لا تزيد عن اثني عشر فردًا.. لماذ يتعقبونني، ولأين أنا ذاهبةبهم في هذا الليل البهيم؟!..

أفقت من ذهولي على صوت همهمات غاضبة. فقد توقفت، وتوقف الجميع، وظهر تشتُّتي وعدم ردي على الأسئلة.

إلا أن هذا الرجل البدوي، الذي ظهر فجأة يقود جملًا، هتف بالإنجليزية:

- كمل كمل كمل.

كان مفاجأة سارّة بالنسبة لي، وصفقة بسيطة أن أتبعه للصعود للقمة، لأنه من المستحيل لي أن أركب أي حيوان كان، حمارًا أو جملًا، هذا مبدأ لن أحيد عنه أبدًا.

كانت ثلاث ساعات ونصف مضنية، لم يتوقف فيها شباب الستين الإنجليز لحظة لألتقط أنفاسي، حتى وصلنا إلى الثلاثة آلاف وخمسمائة درجة سلم.. العدد صحيح فقط للوصول للقمة.

أراكم قد بدأتم تتساءلون ماهو المخيف من القصة.

أجيبكم، ليس بعد.. ففي طريق العودة،حدثت القصة التي تستحق أن تُروَى..

حينما صعدنا للقمة، كان السحاب أسفلنا. إننا في أعلى نقطة في مصر، حيث الثلوج تغطي القمم، والشمس تأتي وكأنها قادمة من مكانٍ ما في الأسفل. هي ظاهرة لم أفسرها، ولكن بالتأكيد استمتعت بها. تجاذبت أطراف الحديث مع الدليل، وعرفت أن هناك طريقًا للهبوط اسمه طريق السلالم أو طريق المدقات، وهو أسرع ويوفر نحو ساعة، ولكنه شديد الانحدار ويحتاج إلى من يجيد الركض والقفز.

بقينا في هذا الجمال الكوني، حتى كانت نحو السادسة صباحًا، ثم قررت المجموعة جميعها أن تركب الجمال في الهبوط. لذا، اتخذت قرارًا سريعًا بسلك طريق المدقات بمفردي، وتركت المجموعة مع الجمال. هكذا أوفِّر

ساعة، أستطيع فيها الاتفاق مع المطعم للإفطار الذي نسيته. كانت قلة خبرتي هي سبب هذا الخطأ، وعليّ دفع الثمن ركضًا.

حذرني الدليل أن الطريق الذي سأسلكه ليس آمنًا، ولكنه مستقيم دون انحناءات ويوفر الوقت. وضعت سترتي في حقيبة الظهر، وبدأت طريقي في إصرار، وقد أصبح الجو حارًا. هكذا هي سانت كاترين، متقلبة المزاج. وبعد فترة من الركض والقفز المبهج فوق الصخور، ولكون النزول ليس شاقًا كالصعود، فها هي مغناطسية الأرض تناديني.. وصلت لبقعة فسيحة، تتوسطها شجرة، وقد وقف ذاك الإسباني يلوح لي كي أقف، لأن زوجته تقضي حاجتها، ولا يصح أن أمرّ الآن. لم أكن أعرف الكثير من الإسبانية، لكن لغة الإشارة الإنسانية أوفت بالغرض، وجلست على صخرة أمام الشجرة، لأشرب بعض الماء، بينما أشارت ساعتي إلى السابعة والنصف.

تعجبت من تلك الشجرة المورفة، التي تنمو في بقعة في حضن ا لصخر. وكأن أحدهم التقط أفكاري، فقد همس صوت خلفي.. أو أمامي: هي شجرة مريم المقدسة.

انتفضت لمرأى الراهب الذي ظهر من العدم، وقد اتشح برداء الكهنوت الأسود، ودلت عظامه الناتئة وحذاؤه المهترئ للغاية على رقة حاله، وقد وقف بجانب الشجرة يكاد يطاولها؛ أو هكذا خيل إليّ.أشرت إليه ببعض الماء، فرفض وغمز بمكر. قال:

- خطر كبير أن تبقي هنا بمفردك. احذري طريق درب الأربعين؛ كنت ستمضين فيه. الآن، ابقي على الناحية الشرقية للشجرة.

كنت مرهقة ولم أفهم ما يعنيه هذا الراهب العجوز. هل أصبح عجوزًا فجأة، ولهجته غريبة؟ ولكنه كان يتكلم بالعربية على أي حال. عرفت أن اسمه هيرمانوس، راهب يوناني. هو لم يخبرني، فقط عرفت.. أن الراهب عريض عرض الشجرة!

فركت عيني بإرهاق.. هل أصبت بضربة شمس؟ وحينما فتحت عيني مرة أخرى، فوجئت بالإسباني وزوجته يشكرانني ويمضيان، وقد اختفى الراهب، وبقيت الشجرة.

ركضت بسرعة لألحق برفاق طريق المدقات، فوصلت إلى دير كاثرين بالأسفل في الثامنة صباحًا، لأتفق مع المطعم المجاور وقد تبقى الكثير من الوقت قبل وصول المجموعة.

بعد أن اطمأننت لأداء ما عليَّ أداؤه، رأيت راهبًا يونانيًا، فسألته عن الراهب هيرمانوس، فأشار إليَّ أن أتبعه لداخل الدير. دخلت وراءه، فأشار إلى حجرة تتشابه مع حجرات أخرى، كتب على كل منها اسم صاحب العظام داخلها من الرهبان الراحلين.

مررت بعيني على الحجرات، حتى صدمتني عبارة تجعلني أنتفض حتى بعد كل هذه السنوات.

"هنا ترقد عظام الراهب المبجل هيرمانوس"

ومعها تاريخ الوفاة لخمس سنوات ماضية!

هل هو شبح؟

هل أصبت بضربة شمس؟

ولكن مهلًا.. شجرة مريم حقيقة، وموجودة!

لقد عدت لسانت كاثرين عدة مرات بعد ذلك، ولكني لم أسلك طريق المدقات وحدي.

علمت فيما بعد ما هو الأهم من كل هذا.. أن درب الأربعين هو تيه كاثرين الحقيقي، فقد ضاع منه من ضاع، ومات من مات، فالخروج منه يحتاج ثلاثة أيام على الأقل، والقصص المأساوية عنه كثيرة.

المفزع في الأمر، أنه في الجهة الشرقية للشجرة.. أما زلتم تذكرون ما قال لي الراهب هيرمانوس؟.. حسنًا لقد سلكت الجهة الغربية لأصل بسلام.

* * *

- 6 -

الإسكندرية 2011

دائمًا أليّ نداء الإسكندرية الحبيب أيام الشتاء، وبالتحديد لحضور ليالي النوة العاصفة.

من جرب منكم هذا الشعور الطاغي، بفرحة السماء والماء والهواء؟كل شيء صاخب.. كل شيء يدور ويرقص في جنون مرح.. هذا الطقس يلائمني تمامًا، ويفرغ شحنات الغضب بداخلي. إنني أسميه التطهير.. إذا كانت الطبيعة تنتفض وتغسل نفسها، فلماذا تبقى النفس واهنة متكاسلة؟!

لكن مهلًا.. لست من هواة الأماكن الخاوية.. فشقتي تقبع في حي مكتظ بالسكان، إلا قطعة أرض فضاء محاطة بسور، تستغل كمخزن للسيارات.. نوع واحد فقط منالسيارات.. لون واحد فقط من السيارات.. صفان طويلان من سيارات الهيواندي الكورية ذات اللون الأسود.. اللون الذي أكرهه تمامًا.

تساءلت في فضول، وأنا أتطلع للسيارت في الثالثة صباحًا من شرفتي، بعد أن آوىالجميع للنوم.. وبعد هطول مريع للأمطار،وبرق ورعد وكلمات

ساخطة على جنوني، وعلى قدومهم معي.. تساءلت وأنا أرتعد من لسعة برد رهيبة عن طريقة اصطفاف السيارات في وضعالاستعداد، وكأنها على أهبة الرحيل.. انتابني ذلك الشعور الذي ينبئ بحدوث شيء مريع..

انطفأت الإضاءة فجأة في الحي بأكمله، فزاد إحساسي بالبرد. لا أدري ما العلاقة بين الظلام والبرد! شددت الدثار حول كتفي، واتجهت إلى باب البلكونة لأدخل غرفتي.. لم يفتح.. أدرت المقبض عدة مرات، دون جدوى. أخذت أتنفس بعمقٍ، لأهدأ وأعيد إدارة المقبض مرة أخرى دون إزعاج النائمين.. وقبل أن ينفتح الباب، عادت الإضاءة مرة أخرى. التفتُّ أتطلع نحو الشارع، فوجدته مضاءً حقًا، لكن ليس من أعمدة الإنارة.. بل كان الضوء من العربات نفسها.. كلها على أهبة الاستعداد.. أسمع أصوات المحركات هادرة.. ثم انطفأت مرة أخرى!

.. صرخت وأنا أخبط باب البلكونة وبعنف.. في الحقيقة، لقد اقتحمته وسقطت داخل غرفتي، وقد استيقظ الجميع يتساءلون في ذهولٍ.

غممت وأنا أنظر لليل البهيم عبر شرفة البلكونة:

- كابوس.. مجرد كابوس ليلة شتاء.

* * *

شبح الشتاء

رواية

لنقلِ إني عايشتُ بعضَ شخوص هذه القصة أن لم يكن أغلبهم.

(1)

رحيل

"يا لها من حياة كئيبة" قلتها وأنا أنظر من نافذة القطار مودعًا القاهرة العابسة.. الغارقة في غيومها الرمادية وقلبها القاسي.غادرتها في منتصف ليلها الواهن في الثامنة عشر من عمر -الأول على الجمهوريةفي الثانوية العامة وقد حققت حلم أمي الغالية في أن التحق بكلية الطب. دائمًا كنت أشعر أن روحها الطاهرة تحوطني وتراعاني ولطالما نمت بائسًا جاعئًا بعد مشاجرة مع زوجة أبي اللعينة التي ثارت وهاجت حينما علمت بتفوقي.. هي امرأة قاسية جبارة لا يغمض لها جفن حتى تطمئن إلى أني بتُّ ليلتي نكدًا.لديها موهبة سوداء في هذا منذ أسبوع سمعت شجارها وزعيقها البومّي مع أبي المستسلم أبدًا :-

"اسمع يا عبد القادر ..أنا لستُ خادمة لك ولابنك لقد فاض بي الكيل.. خمس سنوات كافية تمامًا لتحمله،عليك أن تختار بيني وبينه.. لقد صار شابًا وأنا أخشى على نفسي وبناتي.. دعني أخبرك ما روته نهلة ابنتي عن مشاهدتها له وهو ممسك بيد سندس ابنتي ذات الخمسة عشر عامًا، هذا الوغد ابنك لا يؤتمن...إلخ

لزوجَة أبي ابنتان من زواج سابق:الأولى نهلة ورثت طبع الحرباء والبوم عن أمها وهى في مثل عمري، وقد حققتْ

فشلًا مبهرًا هذا العام مما زادهاحقدًا عليَّ وجعلها تدبر لي المكائد تلو الأخرى.

والابنة الثانية سندس، تلك الملاك الضيئلة الحجم من فرط رقتها تشعر أنك تعيش مع طيف هلامي حائر بين أهل الأرض،بلإنه طيف أتى بطريق الخطأ بكل تأكيد.

أصحو من ذكرياتي المؤلمةعلى هدير القطار فوق القضبان:لقد أنهيت الجولة لصالحها تمامًا.. وها أنا في طريق لألتحق بكلية طب أسيوط وكلمات أبي ترن في أذني فارغة مجوّفة تخرج لسانها بسخرية ممزوجة بالكذب:

-وجيه يا ابني إن كلية طب أسيوط تخرج أعظم الأطباء)* على مستوى العالم وأنت يا ابني تحتاج التركيز..

أغمم محدِّثًا نفسي: ياللشيخ الواهن وبالتسلُّط المرأة،وأبتسم،وكذلك كلية طب الإسكندرية ولكنهم أرادوا إبعادي قدر الإمكان.

مازلت أذكر كيف دمرت الصورة الوحيدةالباقية لأمي كي تمحو ذكراها، واليوم أُطرَد من منزلي.. آه يا أمي لقد مسحت بيدي على جدارن الحوائط وأنا أغادر المكان الذي شهد مولدي.. كل جزءٍ فيه رغم السنوات يحمل شيئًا منك وشيئًا منّي.. ذكريات طفل فقدَ أمه على مشارف المراهقة.. ظلت دموعك الأخيرة وأنت تغادرين عالقة بجدران المنزل وعالقة بجدران نفسي.. رحلت في ليلة مثل ليلتي.. لم يأتِ عليك صباح.. كان صباحك مبللًا بالدموع والدماء والصراخ المذهول.

مثا صباحى هذا حيث أرفض أن يذهب معي أبي لمحطة القطار.. وهو يأمر أمين السائق أن يذهب بي بعيدًا بعيدًا وكأني إثمه الأبدي وكأني خنجر غرس في مجرى عمره.

غادرته دون أن أدير رأسي لوداعه.. غادرت ودموعا لقهر بداخلي حبيسة مختنقة.. تحين مني التفاتة عابرة لمنزلي وألتقط آخر عبقات الياسمين في حديقته، وأسمع آخر زفرات تقاطر الماء من الصنبور..

لحظتها أتذكر سندس تملأ منه راحة يدها لتنثرها على العشب النديّ. أه يا سندس كم أكرهك.. كم أحبك.. إنك ملاك ولكن لحمك نبت في رحم شيطانه.

أغفو في القطار لأسقط في الأحلام حينما غفوت الأميرة أتتها أمها بحلٍّ كي تنقذ إخوتها السبعة من أسر الساحرة،وحينما غفوت بيضاء الثلج أتاها الأقزام، وحينما نامت أميرة الجمال النائم كانت في انتظارأميرها.

أما أنا فقد استيقظتِ على الشمس الحارقة لأجد نفسي في أسيوط:حيث كانت تنظرني هناك حياةخاوية مجهولة الهوية وأجساد غريبة متدافعة في محطة القطار وفي الجامعة تهرول ثم تصافح وأحيانًا تتعانق لأصدقاء بعد غياب ولقاء جديد.. وحيد تمامًا عن كل هذا الجمع..وقد سجّلت اسمي في المدينة الطلابية وأخذت قائمة باللوائح والقوانين وانتظرت طويلًا طويلًا كي يجدوا لي سريرًا في المدينة الجامعية للطلاب.. إنها الرابعة عصرًا.. قمت إلى الموظف وكلّي ضيق:

- أنا تعبت يا بيه..

نظر إليّ شذرًا من تحت نظارته وهو يراقب حبّات العرق اللامعةفوق جبيني وذلك العصب اللعين الذي ينتفض في استماتة، وشعري الأسود الفاحم يلتصق بجبيني وأنا أزيحه بيدٍ متعبة..ثم يردف بصوتٍ ممطوط:

-انشف شوية يا ابني خليك راجل..

متابعًا نظرته المنحدرة على ملابسي الغالية وجسدي الناحل الممشوق وقد أفتر ثغره عن ابتسامة صفراء مقيتة، ينادي الفراش:

يا فايز، اذهب به إلى غرفة (819). ينظر الفراش إليه مشدوهًا:

- لكن يا بيه..

ولكنه لا يكمل على إثر نظرة قاسية رمقه به، ثم ابتسامة صفراء أكثر مقتًا، منذرة بالشر

وهو يشير لي كي أنصرف مع فايزهذا الذي يشبه القلم الرصاص -قلم رصاص دون ممحاة بلاشك

وقد مضى فايز وأنا أتبعه متعبًا منهكًا في آخر المدينة الجامعية، ثمة مبنى من دور واحد يبدو من المكاتب المحطمة والأوراق المتناثرة أنه كان مبنى إداريًا عبث به الزمن، لم يكن به بخلاف ذلك سوى حجرة مغلقة بباب متهالك سرعان ما عالج فايز قفله ثم بدأ في تنظيف عشوائي ليطلب في ابتسامة بلهاء المعلوم.. ابتسامة حوت الكثير من المكر والدهاء والغباء المُطلَق في نفس الوقت. إني متعب وبحاجة للنوم في هذا المكان المترب المنعزل.. فهل ستأتيني يا أمي في أحلامي أم ستتركيني وحيدًا منعزلًا.. أه لم يبقَ لي منك سوى الأحلام.

أدخل في دوامة النوم بسرعةوقد أعلنَتْ كل حواسي التعطل عن العمل غير عابئة على الإطلاق بمن يراقبني في عزلتي هذه.

* * *

(2)

بشندي

أستقيظ مرهقًا عطشًا، وبين اليقظة والحلم ثمة عينان متسعتان تحملقان بي فأنتفض مذعورًاوقد خيَّم على الحجرة الظلام لأجد شخصًا واقفًا عند النافذة المفتوحة يحملق بي،أسأله في وجلٍ: من أنت؟

يرد في مودة: لاتخف يابني. أنا بشندي الغفير. ثم يضحك في مودة أكثر ودفء أكثر أفتقده منذ زمن.

أنت جديد يا بني، أليس كذلك؟؟

على ضوء المصباح الوحيد الخافت الذي يضيء البناية، وقف بشندي بقامتة الضئيلة ووجهه الأسمر المتعب وجلبابه الصعيدي القديم.. أقفز إليه من النافذة فيتراجع في حدة فأعتذر إليه بأن باب الحجرة إذا فُتِحَ لا يُغلَق.ثمة شيء في هذا الرجل أثار عاطفتي أنا ذو القلب المليء بالحقد والأسى لابأس به من رفقة في هذا المكان الخاوي وقد قاربت ساعة يدي على الحادية عشر وبللت الرطوبة قميصي.

سألني في مودة: تشرب شاي صعيدي؟

أومأت له، كان رأسي يكاد ينفجر من صداع رهيب..

جلست على الأرض مثله أنظر للمباني البعيدة الغارقة في الظلام وحثيث الأشجار الشديد يجعلني أغمم في دهشة: من أين تأتي الرياح في بلد مثل أسيوطي متد فيها الصيف حتى أوائل ديسمبر؟

أراقبه وهو يشعل نارًا.. ويضع إناءً أسود اللون على النار، وثمة مروحة من ريش طائر ما يحرك بها الريح لتشعل النار.. ثم وضع في يدي كوبًا صغيرًا لأشرب السائل الحار المختلط برائحة الدخان والظلمة والحر الخانق،كان الطعم شنعيًا لفتى قاهري مثلي.. لكني كنت أبعد من التدليل رغم مظهري،ورويدًا استسغت الطعم وصرت أتجاذب معه الحديث.

قلت له بتوسل:

-أليس هناك غرفة أفضل من هذه؟؟ أشعر أنني في المنفى.

يخبرني بهزة رأس:

-اسمع يا ابني إذا أردتت تفوق وتجتهد، هذه الحجرةبعيدة عن لهو الفتية.

ثم قال لي: سرًا، لايوجد في المدينة طالب طب سواك.

اعترض - ولكن ليس بها إضاءة أو..

ردَّ في صوت حنون:

- لكل شيء حلٌ فلا تعقّد الأمور،ما أسهل شراء مصباح.

للحق مسَّ تعاطفه شيئًا في نفسي.

غريبة هي الحياة:أحرم من عطف أبي لأجد كل هذا الاهتمام الصادق من بشندي الطيب الذي كان يأتي كل مساء ليؤنس وحدتي.. أشرب شايه الأثير برائحة الدخان ومرارة الغربة ولوعة الفراق.

أما أبي؛ فكانت تأتيني اتصالاته على جوالي فاترة ليستفسر عن احتياجاتي المالية، وللحق هو لم يقصّر أبدًا.فقد كان المصنع الذي تركته أمي يدر أرباحًا هائلة يصب معظمه في جوف زوجة أبي.أما سندس فقد تجاهلت تمامًا اتصالاتها فلجأت إلى أن تبعث لي رسائل عبر الإنترنت.. ولم أرد عليها مطلقًا غير أني كنت أنتظرها بلهفة يوميًّا؛ فقد صار اللاب توب ورسائل سندس ورفقة بشندي هم رفقاء غربتي ألجأ إليهم كل يوم بعد انتهائي من دروسي الثقيلة وحيدًا منعزلًا عن باقي الطلاب.. حتى مطعم المدينة لم أستسغ طعامه أبدًا..فأشتري وجبتي الوحيدة من أحد المطاعم الكائنة أمام الجامعة.

أعود كل يوم بلفافة طعام وبمزيد من الكتب والأوراق.. لا أتبادل سوى السلام التقليدي مع أصدقاء المدرج والمختبر سلامًا جافًا لايحمل أيَّ ترحيب بأيّ أحدٍ.. وانتصف العام الدراسي وبدأت الإجازة، وبقيت في المدينة الطلابية أدرس وأحصّل، وبشندي الطيب يرعاني رغم أنه يعاني من كحة خانقة.. لا أعرف لها سببًا.. ومضى الأسبوع الأول بسلام بمللٍ لا يماثله ملل.. على الأقل كنت أدخل من باب المدينة الجامعية كل يوم وسط جمع ما قبل رحيل الجميع لمدنهم وقراهم وبيوتهم الدافئة المليئة بابتسامات الأمهات وسؤال الآباء.

كنا في أوائل يناير،أعاني من بردٍ قارص ليلًا وأتعجب من قدرة بشندي على البقاء في جلبابه صامدًا.

في نهاية الأسبوع،أخبرني أنه ذاهب لزيارة أقاربه.. قالها وانصرف فجأة دون حتى أن ينتظر ردًّا منّي.

لم أستوعب هذا الجفاء المفاجىءمن الرجل الطيب.. ولكن هل بقيت وحدي؟ كلّا كان هناك زائر أكثر بؤسًا. وأكثر شغبًا.. وأكثر فضولًا.

* * *

- 3 -

زائر آخر

بعد رحيل بشندي أصبحت المدينة خاوية، ومما زاد الأمر سوءًا أن الشتاء أصبح قارصًا.. وخاصة شتاء الصعيد القاريّ المناخ، ولقد افتقدت شاي بشندي الثقيل كثيرًا وافتقدته هوأكثر.. حينما لم يعد يوم السبت كما أملت..قررت أن أسأل فايز عنه،وجدته هناك يتسكع أمام البوابة.

- صباح الخير

نظر في بلاهة وهو يردف في سماجة:

- نعم.

- أنا أسال عن عم بشندي.

مطّ شفتيه وهو يقول: من بشندي هذا ؟

ثم سمع صوت سعيد المشرف يناديه،فهرول إليه ككلبٍ صاغر.

واضح أني لن أستفيد شيئًا، وكان عليّ أن أنتظر عودة بشندي. كنت قد تعودت عليه وعلى ثرثرة ما بعد منتصف الليل معه عن حكايات أعماق الصعيد.

كان نهارًا مملًاوخاصة أن الدراسة لم تبدأ على الفور في بقية الكليات ولم يعدالطلاب بعد.. خرجت لأتنزّه على ضفاف النيل في أسيوط شديدة الاخضرار.. يبدو كل شيء هنا داكنًا.

وقفت هناك كالصخرة أرقب الماء المتماوج في لامبالاة.

أصبحت أملك مزاجًا سوداويًا كئيبًا؛ خاصة بعد أن توقفت سندس عن الكتابة لعدم ردي على رسائلها.

وفي خضم أفكاري هذه عادت زوجة أبي الكريهة تحتلها وتنبش في ذاكرتي بضراوة وصورة البيت تتراءى عبر النهر ووجه سندس يغيب ثم يظهرفي طيات الموج.. وبينما أنا غارق في أفكارى ثمة يد تربت على كتفي، يد امرأة عجوز طاعنة تتحلى بأساور زرقاء واحتل الكثير من الوشم ذقنها، كانت تملك عيونًا شابة مليئة بالأمل والألم.. التفتُّ إليها متسائلًا وهي تردف بصوتٍ عذب رخيمٍ:

إيش بيك يا روح ياروح

إيش بيك يا ضنى القلب

كانت لهجتها عجيبية خمنت أنها من البدو الرحل.

لم أجب.. لم أجد شيئًا أجيب به

أمسكت يدي اليسرى وبسطتها وهي تقول :

شيل الهم ينشال الغم

الحزن يا ولدي قصير

الفرح يا ولدي قريب

خلي بالك من نفسك يا طبيب

أكملت ترتيلة لم أفهم منها شيئًا ثم تركتني وهي تضم كفها.أخرجت من جيبي بعض النقود ودسّتها في يدها نظرت شذرًا وألقتها في وجهي.

أخذتني المفأجاة وأنا أغلق عيني بقوة وألم.. فتحتهما فلم أجد أثرًا للعجوز، لا أثر على الإطلاق، صرت أدور حول نفسي في تعجُّب والمارة يرموقونني في فضول.

كانت الشمس قد غابت وثمة قشعريرة انتابتني من جراء لمسة العجوز الماكرة؛ لذا عدت إلى المدينة وكانت الحمى تجتاح بدني، وحين وصلت لسريري البارد، ألقيت بجسدي المكدود على الفراش.

غفوت ساعات وساعات والعرق المتصبب على جبيني ورعشة مميتة تجتاحني..

أين أنتِ يا سندس كم أحبك

أين أنت يا بشندي

أين أنت أيها الرجل الطيب

شيء بارد على جبيني ما أروعه

ماء ثلج يبرد حرارتي

خُيّل إليَّأن أرى فتى في مثل عمري

ياللحمى اللعينة

أنا أتوهم الأشياء

آلاف الأشياء

فجوات الألم تزيد بداخلي وأغوص في سواد مابعده سواد

حين أتى الصباح،أدركت أن الأمر لم يكن وهمًا

هناك من عبث بأشيائي.

وخلف كثيرًا من الطين على أرض الغرفة.

نهضت من فراشي متثاقلًا، كانت الحمى قد ذهبت ولكني مازلت ضعفيًا.
"احمم" تنحنح صوت خلفي.

في أقصى الغرفة كان هاشم هناك يجلس منطويًا.

كان هذا اسمه الذي أخبرني به.

فتى آخر من الصعيد لديه الكثير من ملامح بشندي إلا أنه طويل نحيف
يرتدي"بلوفر" رماديًا كئيبًا ويلف كوفية صوف بنية بالية حول رقبته.

سألني في خفوت: كيف حالك؟؟ لقد كنت محمومًا؟

أه إذن هذا هو من وضع على جبيني الماء البارد.

تنحنح مرة أخرى:عفوًا كنت أبحث عن ورقة وقلم

لم يكن ذهني صافيًا لأتقبل هذا الهاشم،أومأت له في فتورٍ وطلبت منه أن يتركني لشأني وشعر هو بالإحراج وانصرف في هدوءٍ، لكن حينما استعدت قوتي بعد أن استحممت خرجت لأبحث عن طعامٍ فوجدته

هناك في نفس جلسة بشندي،يصنع الشاي الصعيدى ويجلب الريح جلبًا لجذوة النار الخامدة.

ما أبهج الحياة، تملكني الحبور وأنا ألقي إليه تحية المساء وأجلس بجانبه:

- مساء الخير..

نظر إليَّفي خمول..

شيء فيه انكسر من معاملتي الجافة

حينما حاولت التربيت على كتفه ارتعش وابتعد قبل أن ألمسه

عظامه الناحلة ورِقَّة ملابسه أنبأوني بمدى فقره

هل نتعرف من جديد؟ مددت له يدي:

- وجيه الجارحي طب

افتر ثغره عن ابتسامة واسعة دون أن يمد يده

هاشم.. آداب.. قسم الحضارات الأوربية

هل تشرب الشاي معي؟

أومأت له

فأعطاني كوبَ الشاي

كان رائعًا فردت ذراعي فرحًا وأنا أقول تمامًا مثل شاي بشندي.

امتقع وجهه ودارت عينيه في محجريها ثم ولَّى الفرار وهو يصرخ:

هذا الفتى مجنونٌ ولاشك

راقبته وهو يجري بغير اتزان ورأسه تتطوح أمامًا وخلفًا كأراجوز، وكوفيته الكئيبة تتأرجح خلفه حتى ابتلعه الظلام.

كان رائعًا أن يبتلعه الظلام

كان ينقصنيهذا المخبول

كانت وراء الفتى قصة حزينة وأنا سئمت القصص الحزينة..كل القصص الحزينة..

مكثت مذهولًا من هذا الفتى الغريب.. وأدركت أن فيه شيئًامن الحقد الأسود وتمنيت ألا يعود

مرة أخرى.. يكفي هذه الغرفة بائس واحد.

* * *

- 4 -

ساحرة

انتهت الإجازة وعادت الحياة الجامعية بكل صخبها.كان يومي شاقًا أمضيه بين المحاضرات ومعامل الجامعة، وأحيانًا أزور المكتبة العامة ولفتت نظري من الوهلة الأولى بشعرها الأحمرالناري الأشعث وملابسها السفاري ووشم الصقر المجنَّح على ذراعها العاري، هذه الفتاة لاتنتمي مطلقًالهذه المدينة الصعيدية الغارقة في التزمّت.ولا أعرف كيف تسير دون أن يبصق أحدهم عليها أو تنظر أخرى مستهجنة صاحبة العيب والفجور.

كان من الصعب تجاهلها وهي تقترب مني وبصحبتها هذا الفتى الرقيع ذو الشارب الرفيع والشعر الأملس والبنطال الساقط.. مدت يدها ذات الطلاء الأزرق الباهت تتوسطها خاتم ذو جمجمة فضية قائلة:

- هيًا البنداري.

لم أمد يدي وأنا أغمم:أهلًا..

ورنوت بصري لرفيقها، كان يرتدي نفس الخاتم لكن في أذنه، وأكملت بحثي بين أرفف الكتب لم يعجبهما تجاهُلي ولم يصرفهما بل تكلم الفتى في إصرار:

رددت وجيه الجارحي، طب..

كنت اعتدت أن أرفق اسمي دائمًا بالطب كأنه غطاء يحيمني.

مسحت هيا بلسانها على شفتيها كقطة لعوب:

- إننا ندرس في كلية آداب قسم الحضارات الأوربية ووووو..

كانا مثل الشوكة في البلعوم يحتاجان كثيرًا من الماء لصرفهما لذا اعتذرت منهما وتركت المكان. في الواقع كان لدي بحث مهم عن فصائل الدم ولا وقت لدي لطلبة الحضارات الأوروبية الذين يملأن جنبات الجامعة.يكفيني هاشم المخبول بيد أني لا أريد أصدقاء..أي أصدقاء، ليس لي حتى أصدقاء بين طلاب السنة الأولى في كلية الطب فكما لبثت وحيدًا في غرفتي.. لبثت وحيدًا في المكتبة.كان الوقت السادسة مساءً، وقد حصلت تقريبًا على كل المراجع المطلوبة ولم أعِأني أصبحت وحيدًا في المكان، ولم أنتبه إلى غياب المشرف وهممت بالانصراف، فجأة أغلق أحدهم باب المكتبة والنوافذ العلوية.

كنت وحيدًا تمامًا ومسجونًا داخل المكتبة التي بدت شِبه مظلمة في وقت الغروب، تمالكت نفسي وأنا أضرب بيدي لعلّأحدًا يسمعني..

لامُجيب..

صرت أضرب بشدة.. لامجيب.. استنفذت قواي، وجلست على الأرض وقد اجتاحني رعب الأماكن المغلقة المظلمةمنهارًا متكئًا بظهري على

الحائط واضعًا رأسي بين يدى وأنا أقول:"معقول؟ هل انصرف الجميع ونسوني؟ هل لا أساوي أيَّ قدرٍ لأُترَك هكذا؟!

وغرقت في مزاج كئيب وأغمضت عيني مستسلمًا. مستميتًا في جلب التعاسة لنفسي.

سمعت ضحكات هازئة تنبعث من الجدران وارتجف قلبي بشدة وعنف مع الضربات العنيفة المنبعثة من خلف أرفف المكتبة.

وأنا في هذه الجلسة البائسة، تذكرت وجه أمي الحنون وهي تأخذني في أحضانها بعد فرارى من مذعورًا ذات يومٍ من نباح كلب الجيران وهي تقول:"لا تدع أحدًا يشم رائحة خوفك مهما كان الأمر،إن ضعفك في خوفك هذا، وابنى ليس بالضعيف".. لذا نهضت منتصبًا وقد تذكرت أننا ما زلنا في النهار، وقفت وأنا أقول بصوتٍ هادئ لا خوف فيه: هل انتهت اللعبة؟!

لا يهدر سوى صوت مواء بشري يقلِّد بسخافة صوت القطة، ضحكت بغيظ هناك من يحاول إثارة خوفي ولقد تأثرت حقًّا يا لي من أخرق.. الآن أنا غاضب ولست خائفًا.صحت بصوتٍ عالٍ وحازم:

اخرجوا وتوقفوا عن عبث الأطفال هذا!!!

خرجت "هيا البنداري" من خلف دلاوب الكتب يتبعها مايكل ثم الأخ هاشم،كانت وجوههم محمرة

وهاشم يكمل" كنا نبغي اللعب لا أكثر.. هزَّكتفيه باستهزاء وفمه ينبئ بابتسامة قميئة.

يا له من لعين.. هل اللعب بأعَصابي لعبة؟!.. وودت لو لففت كوفيته الكئيبة حول عنقه لكنمشرف المكتبة قد عاد وفتح البابوعينه تنظر لنا باستغراب.. ألقيت عليهم نظرة صاعقة ومضيت في سبيلي وأنا أقول:ياللسخافة.

في اليوم التالي جاءت هيا أمام المعمل، مسحت لسانها بشفتيهاكعادتها مما ذكَّرني بمنظر الأفعى الغازية كل يوم تذكِّرني هذه الفتاة بحيوانٍ ما.. لم تغير لبسها المعتاد وإن ازددا شعرها توهُّجًا ناريًا وطليت شفاها بطلاءٍ أكثر نارية.

-وجيه.

- نعم..

- لحظة،إني أعتذر عن الأمس.

ألقيت عليها نظرة خاوية وأدرت وجهي بعيدًا ثم فاجأتني بلكمة في صدري ضعيفة وهي تقول

- حسنًا يا زيوس حينما تمل من اللعب في جبل الأولمب وتنزل لرعاياك نحن في الخدمة.

كانت فتاة جريئة ومتمردة للغاية من النوع الذي لا أميل له لكن الدموع المترقرقة في عينيها سمرتني في مكاني وسط فضول زملائي الذين يرون أن لزميلهم المنعزل الجاف الطباع صديقة.. وأي صديقة!

قلت لها بصوتٍ نافذ الصبر:

- حسنًا، لا تبكي لست، غاضبًا منك على الإطلاق.

عادت إليها ابتسامتها الطفولية الماكرة: حسنًا، ألقاك على الغداء. ومدَّت يدها لتصافحني على طريقة رجال العصابات.. لا شك فيأني شعرت بأن نظرات الزملاء المستهجنة والفضوليةتكاد تخترق ظهري.

* * *

أصبحَتْ هيا صديقتي بالإكراه، دائمًا أجدها أمامي في أي مكان أذهب إليه ولنقل إني تعودت على هذا الوجود.

كنت أبغض تحررها وثيابها وسجائرها، لكن كان هناك شيء من السحر وشيء من الألم خاصة حين أخبرتني أن أمها أسكتلندية وقد هجرتها منذ كانت في العاشرة، قد يكون هذا ما جعلني أتقبل هيا البنداري يومًا.

وهناك دائمًا حكايتها المثيرة تقابلني بها نهاية كل يوم دارسي.. كنت أصعد معها في أساطيرها الإغريقية إلى قمة الأولمب وأقاتل مع أبطالها الوحوش الضارية.وأستمع في انبهار لصندوق بندورا الرهيب دون أن أدري أنها الصندوق ذاته.كانت تحكي بتلذذ عن غيرة هيرا القاتلة ونرجسيوس الباكي الحزين على جدول الماء وسيزف وصخرته اللعينة كلما صعد بها سقطت من الناحية الأخرى،ثم تبكي حينما تحكي عن مملكة الموتنايثر. شعرت أنها تقاتل للمثول لنصفها الأوروبي بضراوةوتنفر من نصفها الشرقي بضراوة أكثر.

هيا البنداري هي العبث ذاته.. نبت ليس له أرض ولا سماء تظله.. نبتة عجز ماء النيل عن تلبية ظمأها الدائم للحياة.

تتساءلون، أين كانت سندس في كل هذا ،كانت موجودة تكلمني كل يوم بعد أن قررت أنني لن أستطيع أبدًا التوقف عن حبها..لعل وجود هيا هو

ما دفعني دفعًا لمعاودة الاتصال بسندس كنوعٍ من الحماية. سندس تمثل البراءة التي افتقدها في نفسي الحقودة الناقمة على أي شيء وكل شيء،إنها حبي الحقيقي.. أما هيا.. لم أستطع أن أحبها.. نعم كنت مبهورًا بها لكني لم أحبها على الإطلاق فقط كانت صحبتها تقطع بعض الملل الذي ينتاب فتى وحيدًا مثلي ولم يؤثّر هذا على تحصيلي، بل كنت طالبًا متفوقًا وقد وضعت لنفسي هدفًا لابد من تحقيقه لأرضي الحبيبة الغالية في قبرها.

وظللت على هذا المنوال من التحصيل وزيارات هيا واتصالات سندس حتى أواخر فبراير؛حيث تشتد هنا البرودة ليلًا،كانت ليلة عاصفة مليئة بالريح العنيفة الغاضبة حتى شعرت أنها ستطيح بالمبنى كله؛ هطل المطر بعنفٍ ولم يتوقف سوى الثالثة صباحًا ومعه توقف الصخب إلا النافذة كانت تصدر صريرًا مزعجًا، عالجت قفلها وفتحتها لأجده واقفًا أمامي تمامًا صرخت في ذعر: مَن؟؟؟

إلا أن وجه بشندي الطيب أثار في جوانحي الارتياح كان يبدو عليه التعب والإرهاق.

"بشندي أين كنت".. لم يجب ثم استدار ومضى، ناديت عليه وناديت دون جدوى وهو يسير بسرعة خرافية بدا وكأنه يطير.

كان الليل قد ابتلعه وانتابني شيء من الاكتئاب وأنا أتذكر مظهره المسكين: لقد فعل الرجل البائس الكثير من أجلي، وها أنا أدعه يمضي دون أن ألحق به، فقط أغلقت النافذة ونمت، أمي في الحلم الوردي ترتدي ثيابًا بيضاء، تضع في يدي شيئًاوتشير لعنقي، صحوت من النوم

والشمس تحرق وجهي، أتذكر أنيأغلقت النافذة بالأمس وهي الآن مفتوحة على مصراعيها.

تذكرت أمي وبحثت في شنطة السفر على تلك السلسة الفضية التي تحتوى في نهايتها آية الكرسي وتعوَّذت بكلمات ربي التامات من شر من خلق وأنا أضع السلسلة حول عنقي.

بين ظهور بشندي واختفائه ليس هناك الكثير لأذكره: نفس الحياة الرتيبة وخاصة وقد سافرت هيا لأبيها في الأقصر وعاد مايكل إلى القاهرة؛ لأن نظام الدراسة في بداب ينتهي في إبريل بينما الطب يستمر حتى يوليو، ولم يبقَ سوى هاشم أراه كل ليلة يشعل ناره الأثيرة وينظر إليّ من طرف عينيه ولقد تجاهلته شهورًا عديدة بيد أن لاحظت أنه ينصرف كل ليلة عند الفجر بخطواته الغريبة التي تذكِّرني بمصابي شلل الأطفال رغم أنه لا يشكومن علة ما.

كنا في أواخر يونيو وقد استنفذت طاقتي في الاختبارات. وذات ليلة رطبة حارة، خرجت لأجده في جلسته الأبدية بنفس بلوفر الشتاء الرمادي الكئيب والكوفيةالبنية الأكثر كآبة حول عنقه.

تمشيت بعيدًا وأنا أصفِّر لحنًا مرتجلًا وهو كالجلمود منحنى على شعلة النار.. هناك شيء به غريب.. شيء لا ينبئ بالطمأنينة.

فاجأني بقوله وهو منحنٍ على النار يجاهد في إشعاله: إن شعلة جبل الأولمب يجب أن تبقى مشتعلة ولا تخبو.

ضحكت في سخرية. احذر يا هاشم غضب الألهة وإلا غضبت عليك.
نظر إليَّفي صمت وعاد ينحنى على ناره.

هذا الفتى السوداوي أثار فيَّ شيئًا من التعاطف وليست العاطفة.. أنا لا أملكها وهو لايستحقها.

قلت في مودة: هاشم،إن لدي بعض الملابس سوف تناسبك. انهمك أكثر على النار التي زادت اشتعالًا وهو يتجاهل ما قلته ويردف قائلًا:

- أتعرف أسطورة السنتور

- ماذ؟! قلت باستغراب

-حصان السنتور. قالها باستهجان

-لالالالا. هززت رأسى نافياً للتوكيد وهو يكمل الشرح الممل كان نصف إنسان والنصف الآخر حصان،المؤلم أن النصف العلوي هو الإنساني.

- وما المؤلم في ذلك؟

- أن يحب فقط إنسانة ويتزوج حيوانة. أقول في سخرية من أفكاره الغريبة.

قلت بسخرية وأنا أهز كتفي في استهانة :

- فليتزوج أنثى سناتور مثله بسيطة.

نظر لي في استغراب وكأن هذا الحل العبقري اختفى عن قريحة هؤلاء الإغريقين المغرقين في المأساة.

-لم يذكر أن هناك أنثى سناتور.. لم تخلق أنثى سيناتور تنسابه.

قلت في استهانة أكثر :

-صحيح وإلا ما كانت هناك مشكلة.

ينظر إليَّفي نفاذ صبر ويقول:

-أتريد سماع القصة؟

-لا بأس

فيكمل بلهجة متعالية أمقتها وأمقت قصصه الإغريقية..إنه فقط الملل الذي جعلني بصحبة هذا المأفون:

- عندما كان هرقل يصطحب زوجته دينيارا باتجاه تيرانيس، تقاطَع طريقه مع نهرٍ عنيفٍ يبتلع كل ما يسقط فيه، نيسوس وهو سنتور جامح عرض على هرقل أن يساعده بأن ينقل زوجته إلى الضفة الأخرى.سبح هرقل إلى الضفة عندها سمع صراخ زوجته التي حاول السنتور أن يختطفها عندها صوَّب هرقل سهمه المسموس بسم أفعوان الهيدرا وأصاب نيسيوس، إلا أن السنتور أراد الانتقام لنفسه فأعطى قميصه الذي تشرَّب بسُمِّ الهيدرا إلى زوجة هرقل مدعيا أن هذا القميص يعيد الحب إذا ذبل.

بعد سنوات من هذه الحادثة، أكمل هرقل ملحمته وكان ما يزال بعيدًا عن الوطن، سمعت زوجته أنباءً أنه أحبَّ واحدة أخرى.وعندها أرسلت إليه القميص ولم تكن تعلم أنه مسموم، وهرقل الذي لم يعلم أنه ملوث ارتداه إلا أن ذلك بالطبع لم يؤثّر على جسده المنيع.

لم أعلم المغزى من القصة، ولكن لا أريد أن أظهر بمظهر الجاهل فأضحك في سخرية:

- رائع، لقد فشل انتقامه.

نظر إلى بعينين زائغتين:

- معك حق، لقد فشل لكنه سيعاود الانتقام.

لم أعد أفقه شيئًا من قصصه الوهمية هذه،ما أجمل أن أعود إلى كتبي الرائعة،على الأقل أن أفهم فيها الكثير وكلها بني آدمين كاملو الأطراف بيد أني لن أترك الليلة دون أن أنال من هذا المتغطرس.

-هاشم أخبرني لماذا خطواتك غير متزنة.

أجابنى في وجوم:

- حادثة كسرت فيها قدمي ونتج عنها أن طرفًا صار أطول من الآخر.

خيل لي أن عينيّ هاشم تتحولان لكتلة من لهب وهو ينظر إليّ، ثمأذّن الفجر من جامع المدينة وأصابه شيء من اللوثة وأخمد النار بقدمه وانصرف بمشيته المهتزة دون وداع.

هل حقًا أني سمعت صرخة خافتة حين فعل ذلك لست أدرينإنه غريب الأطور والأغرب أن أضيع وقتي معه.إنه الملل لا شك.

مضت الأيام في نهجها المعهود وقد انتهت اختباراتي وصار حتمًا عليَّ أن أجد مكانًا أمكث فيه شهر الإجازة.

بالطبع إنه من المستحيل أن أعود لوكر الحية زوجة أبي الذي هو في الحقيقة بيت أمي .والأكثر أني ملكته عنها بحصة مع أبي.

كنت جالسًا في إحدى الزوايا الهادئة حين رنَّ الجوال ليظهر رقم سندس الحبيب، كم اشتقت إليها لا يهم أن كانت أمها الأفعى الحمراء ذاتها. راقني التعبير جدًّا فتبسمت في صمت.

أجبتها عبر الأثير:

- سندس، كيف حالك، والامتحانات؟

-إني بخير وقد اجتزت الامتحانات عامًا، وسألحق بك في طب أسيوط يا وجيه.

ضحكتُ وأنا أقول: ستضيء المدينة من أجلك يا ملاكي.

غيَّرت الموضوع ببراءتها المعهودة:

- وجيه، لماذا لاتمضي الصيف عند خالتك صفية، لقد كلمتني بالأمس وسألتني.

طبعًا أنا أدرك أن سندس رتبت كل هذا .

- سأفكر يا عزيزتي.

- أرجوك يا وجيه هذا رقمها.

- هل ستكونين هناك؟

- بالطبع، سأكون في الإسكندرية. وصفية ليست خالتي، ولكنها مدرسة أمي العجوز التي أحبتها كثيرًا،

لابأس أن أمضي الصيف لديها؛ فإيهاب ابنها صديقي كلمته وكان سعيدًا للغاية بمجيئي.

أنهيت اتصالاتي.. ما أجملك يا سندس وما أروع وجودك في حياتي. ما أجمل الحب.. ما أحلى الحياة.

غارق في أفكاري أفيق مذعورًا على يد قاسية تغرز أظافرها المطلية باللون الأزرق في لحم رسغي أظافر قاسية أسالت على ساعدي الدماء.

تبا لك يا هيا كيف تجرؤين؟!.

صرخت بعنف وهي تمسك برقبتي كهرة مفترسة غاضبة:

- أنت تحبها..

أزحت يدها المتشبسة بي في استماتة:

- وماشأنك أنت؟!

ركنت ظهرها للحائط وقد تحول وجهها لشيطان حقيقي والتمعت في عينها نظرة غاضبة قاتلة متوعدة :

- أغيب وأعود لأجدك واقعًا في غرام أخرى.

كان مايكل وهاشم يقفان على مقربة يتلذاذن برؤية هذه الحية وهيتكاد تفتك بي.

رددت في صلابة وأنا أبتعد عنها قدر الإمكان:

- اسمعي يا هيا،إننا أصدقاء لاشيءىخر.. هذا هو الرابط الوحيد بيننا ثم.. لا شأن لي بأوهامك وأفكارك المجنونةلاتتدخلي في شئوني مطلقًا وأعتقد أنه قد آن الوقت لإنهاء هذه الصداقة المقيتة، ولم أنتظر الرد بل رحلت تاركًا لها المكان.. ساءني كثيرًا أسلوبها العنيف معي.. ألا إني ندميكان على أسلوبي الأعنف معها.. ذهبت لحجرتي لأجهز حقائبي وقد استغرق مني الأمر وقتًا طويلًا حتى قاربت العاشرة. إني متسخ للغاية

وأبغي النوم، ذهبت إلى دورة المياه في نهاية المبنى،أخرجت آية الكرسي من حول عنقي.

غسلت وجهي وقدمي وبللت شعري بالقليل من الما.. ما أجمل الانتعاش، لكن مهلًا.. ما هذا الأنين؟ التفتُّ إلى هذا الجسد المنتحب في الركن.. إنه بشندي.. شيءما منعني من الاقتراب.. شيءألجمني وهاتف يدوي في عقلي.. ابتعد يا وجيه. ابتعد فما تراه لاصقًا على الجدار يحرك عينه في استكانة ليس بشندي.. ابتعد يا وجيه..

خرجتُ مسرعا عبر الممر والرعب يلتهمني وقلبي يدق في عنفٍ لأجد مفاجأة في انتظاري.

نار كبيرة موقدة وهناك يقف هاشم منتصبًا يحمل سكينًا حادة النصل طويلة وتقف بجانبه العجوز التي قابلتها على ضفة النهر من النا حية الأخرى.. هيا البنداري وقد تناثر شعرها كساحرات أوروبا وبجانبها ذاك الفتى الممطوط مايكل.

لكن ما هذا يا إلهي،إنه بشندي جالسٌ ذليلًا مربوط الأيدي.

إنهم يرقصون حوله في هيستريافي حفلة شياطينية يقيمها الأوغاد ثم يقف مايكل يتلو تعويذة ما،الساحرة تلقى أشياء وهمية في النار لتزداد اشتعالًا.. اندفعت نحوهم.. حرَّكت هيا إصبعًا فشعرت بقوة مغناطسية تقتلعني من الأرض..أي مسّ شيطاني هذا.. ثم تحركوا نحوي.. تمت أعوذ بكلمات ربي التامات من شر ما خلق.. تلوت آية الكرسي.. تحررت،لم أعد أذكر، طارت بي قدماي إلى الجامع في المدينة الجامعية، دخلته منهارًا مرتاعًا وارتميت أبكي: يا الله يا الله فما رأيته كان فوق استعيابي.

أذّن الفجر ولم هناك سوى حارسيْ أمن.

صليت معهم ثم لاحظ أحدهم وجلَي، فرويت له كل شيء، لم ينبس ببنت شفة وذهب إلى الججرة معي لم يكن هناك أي أثر للنيران أو لبشندي وهاشم ورفاقه.. كان الصداع يضرب رأسي بلا هوادة والحارس يتمتم في تعاطف.. من أعطاك هذه الغرفة.. يا له من معدوم الضمير.

سألته في خفوتٍ ما بها هذه الغرفة.. ربت على كتفي في تعاطف لاشيء يا بني لاشيءلا شيء..كان رجلًا فيأواخر الأربعينات اسمه بديعلم يكن لدي طاقة لأعرف ما يخفيه عنّي.

كان عليَّ أن أرحل فرحلت.. هناك أشياء خارقة تحدث أشياء لن أستطيع الحديث فيها مع مخلوق. أشياء تدفعني للجنون.. ساعدني بديع في حملأشيائيوربت على كتفى وهو يرنو لي بنظرة حانية حينما ستعود ستكتب شكوى في موضوع الحجرة.

ودعته غير عابئ بعودتي مرة أخرى.. بداخلي هاتف.. وجيه لاتعود..

وركبت القطار إلى الإسكندرية حيث بدأت هناك مأساتي الحقيقة.

* * *

- 5 -

قاتلة

الإسكندرية استقبلتني برائحتها العذبة المميزة، تشعرني هذه المدينة بالألفة والدفء.. هي مدينة الغرباء الودودة

على محطة القطار وقف إيهاب صديقي الطالب في كلية الفنون الجميلة وقد هاله منظري الشاحب ووجهي الممتقع،أدرك أن هناك خطئًا ما.

وألحَّ بالسؤال وتجاهلته..لا أستطيع أن أُخرج مخاوفي كي لا تخرج لي.. وأنا أضعف من مواجهتها..

استقبلني حضن صفية الدافئ الحنون،إنها امرأة طيبة في الستينات من عمرها ذات شعرٍ رماديٍ قصيرٍ ووجه ممتلئ شديد البياض لا علا قة لها بالجدات السكندريات، ترتدي دومًا بنطالها القصير وتضع على رأسها قبعتها المميزة وقد تزوجت في سن الأربعين وأنجبت إيهاب متأخرًا.. أرى صورة زوجها على الجدار، ذلك البحّار الهولندى الأصل الذي رست سفينته في ميناء الإسكندرية، حيث قابل صفية ولم يغادرها بعد ذلك مطلقًا حتى وفاته .

يحمل إيهاب الكثير من ملامح أبيه الأوروبية، فقط الملامح، إلا أنه في المجمل إسنكدراني أصيل.

إني في أمسّ الحاجة لمثل هذه الوجوه الودودة.كنت متعبًا وقد أخذت دشًا دافئًا واستلقيت بفراشي غارقًا في أحلامي، أمي ما بلكِ وجهك حزين، أمي ما بك تبكين؟ تشير للسلسلة وآية الكرسي،أنهض مذعورًا وأتذكر: لقد تركتها هناك ساقطة في أحد الأركان.

"وجيه وجيه، انهض كفى نومًا، هيًا لناكل أطايب الست صفية". استقيظت على صوت إيهاب والخوف يملأ جنبات نفسي.. خوف لا أدري له سببًا.. خوف مرتبط بكل تأكيد بما ظننته حلمًا جرى لي في غرفتي الكئيبة في أسيوط.

لبثت أسبوعًا كاملًا بلا أدنى نشاط ولا حتى رأى الشاطئ وجهي. كان إيهاب قلقلًا لكنه إنسان غير فضولي يمضي نهاره وجزءًا كبيرًا من الليلفي رسم لوحاته.

دخلت عليه في حجرته وكان منهمكًا في لوحة ما،أذهلني الحصان الأبيض ذو القرن الماسي وأرجل الغزال.. ماهذا ياللروعة!إنك مبتكر حقًا..

نظر إليّهازئًا:

- إني أرسم شيئًا قديمًا قِدَم التاريخ،إنها لوحة مطلوبة عن الخيول الإغريقية.ثم وقف منتصبًا ليكمل إلا أني قاطعته: شكرًاإنيأعلم الكثير عن الإغريقيات.. سألني في فضول وكأن طلبة طب لا يخرجون عن الدماء والعظام:

-ماذا تعلم؟

أجبته في ملل:

- ما يكفي تمامًا لأكره كل ما يتعلق بها.

نظرت باحتقار متعمَّد للوحة:

- إن الحصان هذا بشع للغاية.

ضحك إيهاب: ثمة شيء غامض فيك.

تركت له الغرفة وأنا أخفي بداخلي الضيق

لا ليس مرة أخرى.

اتكأت على الباب واجمًا وأغلقته.. الحجرة مظلمة.

فجاة ضوء ينير في يدي.

إنه الجوال ورقم سندس الأثير:

ألو وجيه أين أنت؟ إني أبحث عنك.. علمت من طنط صفية، وكلنا في الإسكندرية في فيلا الشاطبي.

تذكرت مكان أمي الأثير فدمعت عيني بحرقة.. جاء صوتها القلِق كالبلسم:

-وجيه، هل أنت معي؟

-نعم..

أجبت وقد تملكتني غصة.. وهي تعاود السؤال بإلحاحٍ أشعرني أني شخص مرغوب به وغير مهمل ومنسيّ.

أريد أن أراك.

أجبت على الفور: وأنا أيضًا أرغب في رؤيتك بشدة.

عدة شهور جعلتني أدرك أن حبي لسندس لن يعكّره شيء ولن يقف بيننا شيء.

قابلتها وقد خرجت لأول مرة معها عند متحف الأحياء المائية، مازالت البراءة تكسو وجهها الذي ازداد جمالًا.. وشعرها الأسود المنسدل على كتفها في استكانة، ونظرة عينها المتهربة منّي دائمًا في خجلٍ وشهقتها الطفولية حينما أمسكتُ يديها لنعبر الشارع. عندما تحب في هذه السن يكون لطعم الحب مذاق خاص أظنه الحب الوردي الرقيق الناعس.. الذي يعصف بكيانك فلا تدري من اين جئت ولِمَ جئت ولأين تذهب.. ينبض بقلبك نبضات متتالية سريعة ويشيع في خلاياك السعادة والحنين لنصفك الآخر.

أمسكت أناملها الرقيقة ونحن ننظر الأسماك الحبيسة فأفلتتها منّي بسرعة.. ضحكت.

- كيف أنت سندس؟

نظرت لى نظرة معذبة:

- أفتقد وجودك معنا وجيه..ترقرقت عينها بالدموع.. تألمت كثيرًا من عدم الرد على رسائلي لشهورٍ، ولكني أعرف ما تمر به وأقدّره.

مسحت وجنتها بخفة.. ابتسمت لها فابتسمت لي.. وكأن العالم صار هي وأنا.

أه يا سندس إن مشاعري لكِ لم يصبها العطب وبقيت في وجداني ناعمة دافئة حالمة مثلك.. بريئة مثلك.

خرجنا سويًا كثيرًا.. حتى ذاك اليوم أتت سندس وبرفقتها الأفعى الصغيرة نهلة أختها، والأفعى الكبيرة أمها، وبالطبع أبي معهم وقد حاول أن ياخذني في حضنه إلا أني مددت له يدي في فتور، كان الأمر على شاطئ كليوباترا في المنتزه.

جلست وحيدًا بعيدًا متباعدًا أرقب سندس بين الفينة والفينة من تحت المنظار تلهو في المياه مع شقيقتها.. كانت سعيدة ومبتهجة..طفولية وصاخبة.. سعيدة هي وسعيدٌ أنا بوجودها معي حتى إن لم أستطع مشاركتها لهوها البريء.. ثم غفوت انتقلت لعالمي الآخر حيث أمي في الحلم باكية.

سندس تمسك في يدها زهرة زرقاء وقد ابتل شعرها تمامًا.. وأنا أقف بعيدًا واجمًا وهي تشير لي بالزهرة الزرقاء وتبكي.

أستيقظ فزعًا مناديًا اسمها.. يشير أبي متعجبًا:

إنها مازلت في البحر مع شقيقتها

إنها هناك وحيدة وثمة موجة عاتية رهيبة بعيدة أتيةثم فجأة تبتلعها.

تشير لي من بعيد، تعلو وتطفو هي ونهلة أهرع إليها بكل قواي.

شيء ما يجذبهم للأعماق في إصرار. تختفي نهلة وأصل إلى سندس وأجذبها بقوة والموج يرتطم بنا بشدة كالسياط اللاهبة فوق جسدي لكني أتشبث بها بقوة أكثر.

أحملها لاهثًا إلى الشاطئ..

وجهها الأزرق أنبأني بالنهاية، تمسك بشدة بيدي ثم ترتخي وقد تمتمت شفاهها بشيء ما وحملت عيناها فزع الدنيا.. مذهولًا أرى ذاك الشعر الأحمر الذي تركته بين أصابعي والظفر الأزرق المكسور..ثمة خصلة نافرة على جبينها الناصع وقد زادها الموت جمالًا فوق جمال.. نظرت إليها مذهولًا وصدري يعلو ويهبط في عدم تصديق مثل ذاك اليوم مع أمي.. غارقة في دمائها وسيارتها مقلوبة وأنا أصرخ بجانبها يلفني الظلام والبرد والألم وأي ألم.. لم أملك يومها أن أشارك الصرخات المدوية فوق رأسي ولا حتى أن أمكث بجانبها وبجانب أمها الملتاعة.. وقفت أنظر إلى جسدها المسجى وقد افترق عالمي عن عالمها.. غابت عنّي وهي بالكاد تكمل السادسة عشر.. لم أبكي حتى.. لأن الدموع تعبير رخيص عن مصيبتي فيها وهل تكفي دموعي كلها لفراق حبيبتي.

ما أبشع أن تحب وأن يموت حبيبك بين ذراعيك والأبشع أن أكون السبب في موتها.. أعلم أني السبب في موتها.

مازال الشعر الأحمر والظفر بين اصابعى أنا اعلم لمن ولكن لن اجروء أن اقول لأني ببساطة لا افهم لا افهم

جاء موت سندس ونهلة صدمة قاسية لزوجة أبي التي انهارت.. كانت تصرخ بهيسترية حينًا وتكسر كا ما تطوله يدها.. بل إنها فقدت عقلها تمامًا وهاجمت أبي بسكّين.. كانت حالتها المتدنيةتثير الشفقة مما استدعى إيداعها مستشفى خاص للأمراض العصبية.

أما أنا،فقد انكسر الكثير في داخلي؛موت حبيبتي سندس ترك الكثير من فجوات الألم السودوى بداخلي وزاد من مساحات الحزن الأبدي التي احتلت وجداني.. خاصة أني عدت إلى منزلي وكان كل شيء يذكِّرني بها ويزيدى من جزعي لأني أشعر أن قاتلها الحقيقي، أن الشعر شعر هيا البنداري والظفر خاصتها لكن كيف كيف ولماذا.. لقد أعطيتهم للشرطة وجاءت نتيجة التحليل أن الشعر والظفر مستعار ولاشيء يدل على وجود من تُسمَّى بهيا البنداري من أساسه في جامعة أسيوط ولا وجود لقسم الحضارات الأوروبية في الجامعة كلها.

وأغلقتَ التحقيقات على غرق الضحايا معًا.

كنت أتألم في صمتٍ أراقب أبي يجلس في وجوم.

لم يكن هناك بيننا الكثير من الحديث

كان جالسًا في التراس الواسع ممسكًا بألبوم الصور

دموعه السخينة ألانت الكثير في قلبي الصخري

اقتربت منه وأنا أقول بتردد:

-أبي.

نظر لي بدهشة ممزوجة بالفرح:

- وجيه! من زمن بعيد لم تنادي بهذه الكلمة، تعالَ يا بني.. انظر.

كانت الصورة لفتاة في العقد الثاني من عمرها ذات شعر أسود غزير ووجه أبيض مستدير، تحمل طفلًا صغيرًا وثمة ابتسامة رقيقة تضيء

وجهها البيضاويّ.. ويقف بجانبها شاب أحمل الكثير من ملامحه. همست:

- كم كانت جميلة.

لم يرفع بصره وغمم:

- بل فاتنة يا وجيه.

نظرت إلى تعبير وجه البائس وقد صدمني بشدة فغممت مذهولًا:

- كنت تحبها!!

- لم أحب سواها.

- إذن لماذا ؟

أغمض عينيه :

- لماذا تزوجت عليها؟

- نعم..

- أنت لا تعرف.. أمك كانت عنيدة ومثابرة وجامحة امرأة لاتنحني للريح.

- كنت تكره نجاحها؟

- لا..

- إذن لماذا ؟

كنت أريدها لي خالصة بلا مشاغل مصنع، لكنها كانت ذات شخصية قوية.

قلت في حدة:

- أردت إذلالها أليس كذلك؟

نظر إليّفي وجوم:

- كنت أتخيل أنها ستعود إليّ حينما تعلم بزواجي وتقاتل من أجل أن تعيدني، لكنها خرجت معك بسيارتها ثائرة حزينة لتصدم بتلك السيارة الضخمة وتموت.أه يا وجيه كنت أعشقها.. مازلت أعشقها.. أعلم أنها لم تصدق أنه بإمكاني فعل هذا بها.

نظرت إليه وقد احتضن صورتها والحيرة تضربني بعنف..

- كيف وأنا ابنها وتكرهني؟

- لا يا بني لم أكرهك يومًا أبدًا يا وجيه، كنت أكره ذاتي.إنك تملك نفس العناد والمثابرة والروح القوية، كلما رأيتك تذكرت جريمتي في حقها،إني لست مثلكما على الإطلاق إني واهن وضعيف يا وجيه.. إني أرى في عينيك صورتها ونفس نظرتها المؤنّبة.. نظرتها الأخيرة الذاهلة. كان هذا آخر ما رأيته منها؛ تلك النظرة التي جزعت لها وأنا أستلم جثمانها.. نظرة قتلني سنوات وسنوات.. نظرة كنت أنت تحلمها دائمًا ترسم كلمة واحدة.. "قاتل".

أراعني اعترافه وأذهلني وأذاب الكثير في داخلي، وأضاف إليّ الكثير من الألم أيضًا،هو اعترف بخطئه وأنا جبنت أن أعترف بإثمي.

فتح لي ذراعيه وارتميت في حضنه

إنه رجل بائس وحزين ويحتاج رعايتي

لقد علمنا أن حالة زوجة أبي متاخرة وقد تظل بقية حياتها في المشتشفى
لم أململك تجاها سوى مشاعر الشفقة

ولم أملك لنفسي سوى مشاعر الأسى التي ستلازمني بقية حياتي.

أنت يا أبي تحررت باعترافك عن أمي وأنا لم أتحرر بعد باعترافي عن سندس، سيظل طيفها المتهلل يعذّب روحي.. تسألني في ألم:

ما ذنبي يا وجيه

ما ذنبي

في تلك الليلة الحالكة السواد وأمك ملقاة تنزف بغزارة وأنت تبكي بغزارة، لماذا لم تبكِ من أجلي كما بكيت لأمك

هل كان عليَّ أن أعترف يا سندس أني مت تلك الليلة وأن جسدي ظلَّ عالقًا في عالمنا.. إني جسدٌ بلا روح وإن حبك هو ما أعاد جزءًا منِّي.. وقد ذهب معك.. مازلت جسدًا بلا روح معلّقٌ في عالمنا سندس..

* * *

عودة الشر..

مرت الأعوام على حادثة سندس ونهلة وقد تغيرت حياتي كليًّا وعدت للقاهرة لألتحق بطب عين شمش .. تمضي أيامي فاترة مليئة بشيء من الحزن الذي سكن وجداني وصار جزءًا مِنّي، وقاربت على التخرج من كلية طب عين شمس.. بعد أن قطعت كل لي صلة بطب أسيوط.. حتى إني لم أذهب مطلقًا هناك.

أتلافى الصداقات كما فعلت في عامي الأول،ليس لدي سوى صديقي إيهاب ابن عمتي صفية أراه كل شهر تقريبًا، يأتي إلى القاهرة ويمكثلدينا بضعة أيام.

يحكي لي عن مغامراته مع الفتيات وكيف يستغل وسامتة الشرق أوروبية. إن إيهاب يملك قلبًا مملوءًا بالحياة والأمل وحتى بعد وفاة والدته لم يستمر في الحزن طويلاً، وسرعان ما عاد لسيرته الأولى خاصة وقد تخرَّج من كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية وجاء ليقيم في القاهرة في أحد أزقة خان الخليلى ليرسم من عبق التاريخ كما أخبرني.

إن الأيام تمضي بي مسرعة محمَّلة بنكهة حزينة لا تفارقني أما أبي فقد خرج من أحزانه وصار يدير المصنع ولم ينسَ واجبه تجاه زوجته وقد زادت حالتها سوءًا.

كان يستعد للذهاب إليها للزيارة وسألني: ماذا ستفعل اليوم؟؟
أبغي زيارة إيهاب لا يجب جواله منذ عدة أيام.. يقلقني أمره كثيرًا
ضحك وقال هذا المجنون أخبره أنه معزوم على العشاء معنا الليلة

ذهبت لإيهاب وكان منهمكًا في رسم لوحة ما إن اقتربت منها إلا وخبأها في عنفٍ،إنها لم تُولَد بعد لا تدنسها أيها الأبله.

له تعبيرات غريبة ولسان حاد وجسده يزداد نحولًا يومًا بعد يوم ويقطن شقة فوضوية لأقصى درجة.

ضحكت وأنا أحاول عدم إغاظته..

حسنًا لن أعطلك يا فنان.. أنت معزوم لدينا اليوم وجئت لأخذك.

لم يعِرني انتباهًا وهو يزم شفتيه ويركز في ضربات فرشاته ويعتبرني ضيفًا غير مرحَّب به.. هكذا هو إيهاب حينما ينغمس في شيءٍما.

لدينا بطة رائعة ومحاشي وكثير من الحمام قلت له وبنا نظر بلا مبالاة لما يفعله محاولًا إغاظته.

نظر إليَّ وقد ضيق بين عينيه،كنت أعرف شهيته لهذا النوع من الطعام. ترك اللوحة متململًا.ثم قال في ضعف:

لاتأتي إليَّ مرة أخرى

إذن لن تأتي.. تظاهرت بالانصراف

يا للك من سخيف سآتي بالطبع، انتظر سأبدل ملابسي

هتفت به ولا بأس أيضًا بقليل من الماء للتنظيف فلوح بيديه متأففًا

تركني وحيدًا مع لوحته المقدسة.. مَن منكم جرَّب الفضول.. هل يسطيع أحد المقاومة.. أدرت لوحته الوليدة.. اختفت الابتسامة من وجهي.. وخفق قلبي بعنف..إنها هي بشعرها الأحمر القاني، بأنفها المتعالي

المتغطرس والنمش الواضح على وجههاوأظافرها الزرقاء ونظرتها القاسية تطل ساخرة من اللوحةلقد عادت نعم لماذا؟.. يتزايد الألم في جانبي وأنا أرى اللوحة وكأنها حية، ثمة صرخة قويةصرخة محتجة.

وقف إيهاب فوق رأسي صارخًا ومحتجًّا:

- كيف تجرؤ؟

قلت وأنا أرتعش كلّيًا وأتجاهل غضبه:

- من هذه؟ إنها هيا البنداري أليس كذلك؟

كنت منفعلًا وغاضبًا وأرتعش، وقد عادت المعاناة التي مررت بها أمامي رغم مرور السنوات.. عادت سندس بوجهها الحالم وشعرها الأسود ملتصق بجبينها الذي ألصقه به الماء بقسوة.

ارتاع إيهاب من منظري وترك اللوحة وأمسك بيدي:

- وجيه اهدأ..

- هي أليس كذلك؟

- إنها بنداري فعلًا ولكن اسمها فريدة البنداري، ليس هيا، اهدأ يا وجيه إني أعرف هذه الوجه جيدًا وكيف أخطئ وجهًا تسبَّب في عذابي،نظر إليَّ متحيرًا وغير مستوعب:

-قد تكون شقيقتها، ولكن ماهي قصتك لتنفعل هكذا؟

كيف لي أن أخبره، تمتمت:

-لاشيء.

- كيف بالله أخبرني؟!

تملصت منه وأنا أحاول أن أبدو متماسكًا طالبًا فجأة تغيُّر الموضوع.

- هيَّا بنا لقد تأخرنا.. كنت قد تمالكت نفسي بعد الشيء.

نظر إليَّ بشكٍّ وانصرف معي.

في الطريق كان ذهني شاردًا وكدت أتسبب في حادث بسيارتي.

مرَّ العشاء في صمتٍ، كان إيهاب وجلًا متشككًا وأنا غارق في أفكاري السوداء، حتى إن أبي أشار إلينا.. ماذا بكما، ابتسمت في وهنٍ:إنه الإرهاق لا غير، ولم أتبادل مع أحد أي كلمة ولم آكل أي لقمة.

بعد العشاء، رفض إيهاب توصيلي له في حزمٍ، لقد أصاب موقفي منه شرخًا في علاقتناخصوصًا وأنا أسأله: هل أنت مرتبط بها؟

صمت ولم يجب سوى بهز كتفيه.أعرف إيهاب حين يغضب هو لايقبل سوى بالحقائق كاملة وهو يعرف أنيأخفي شيئا عنه؛ خاصة وأنا أودعه قائلًا"احترس منها".

في اليوم التالي أتاني اتصاله:

- وجيه..

- نعم؟

- لقد اتصلت بفريدة بالأمس، إن هيا شقيقتها التوأم، كنت أدرك أن اللعينة تلعب لعبة ما.

- حسنًا.إن التشابه قوي.

شيء آخر؛طلبت أن تقابلك، لقد ذكرت اسمك أمامها ستأتي في تمام السادسة بل وأصرت.

هل أهرب منها؟

كيف وأنا أخاف على إيهاب المسكين منها.. لكن لسندس حق.. يكفيني تخاذُل.

في الخامسة والنصف كنت أقود سيارتي إلى الخان،طرقت الباب وفتحت هي ودخلت في صمت وأنا لا أحيد بوجهي عنها والحيرة تفتك بي ولم أفق إلا على صوت إيهاب.

-إيهاب..

-أهلًا وجيه.

-كيف أحوالك؟

-بخير.

-أقدم للك فريدة البنداري.

-هناك تشابُه رهيب لكن النظرة الوادعة لا يمكن أن تكون لها.

إن البراءة لا علاقة لها أبدًا بهيا.

مددت يدي:أهلًا.

سلمت عليها بحيرة وقد ضاع كل تحفُّزي.. هذه المخلوقة الوديعة أقرب لسندس.. تحمل ملامح هيا.. هي فقط مجرد الملامح لكنها شخص

مختلف تمامًا.. حتى طريقة نطق اللغة مختلفة تمامًا فاللكنة الأجنبية واضحة لدى فريدة.

كانت متلهفة لشيء ما

جلست ثم نظرت لإيهاب تستمد منه الشجاعة

- أخبرني إيهاب أنك كنت تعرف هيا شقيقتي التوأم.

أومأت نعم منذ عدة سنوات كنت طالبًا في طب أسيوط وقابلتها هناك. أذكر أنها كانت تدرس في قسم الحضارات الأوروبية هناك.

شبكت يديها:

-إن الأمر غريب تمامًا.

-ما وجه الغرابة؟

- بالفعل كانت تدرس قسم الحضارات الأوروبية في جامعة عين شمس. نظرت إليها وقد استحوذت على حواسي .تدخَّل إيهاب:

- وجيه، لا يوجد مثل هذا القسم إلا في جامعة عين شمس.

أكملت فريدة:

- بالإضافة إلى أن هيا متوفاة منذ ستة سنوات.

ارتعشت داخليًا.. غير معقول.. أنا قابلت هيا منذ خمس سنوات.

أكملت أن هيا لم تكمل هنا سوى شهر واحد وعادت إلى أدنبرة إلى أمي. ثم خبأت وجهها بين يديها وبكت. اقترب منها إيهاب مواسيًا وهى تكمل:

- لقد احترق المنزل عن آخره.

نظرتُ إلى الصورة ثم إليها..وميض في رأسي يلمع بشدة ويعيد لذهني آلاف الشكوك.. لكن هذه صورة هيا.

نظرت فريدة إلى إيهاب ثم إليّ:بالفعل لقد أعطيت لإيهاب صورة ضوئية لها.

نظر إليها متحيرًا:

- لقد أخبرتني أنكِ ترفضين أن يتفحّصك أحد وأعطيتني الصورة لأرسمها لك.

لفّت ذراعيها أكثر حول نفسها: لقد فعلت هذا من أجل أبي..

شيء بفريدة أنبأني بأنها تكذب وأنها أرادت رسم الصورة لأمرٍ ما.. أمر مخالف تمامًا لما أخبرتنا به وحتى تكمل بنظرات متهربة:

-إن حالته تسوء منذ رحيل هيا ووفاتها المفاجئة.. هولا يعفي نفسه مما حدث لها.

وانخرطت في بكاء حاد.

كانت الفتاة تخفي الكثير من الألم بداخلها مما جعلنيأخمّن القصة المعتادة: فتاة مع الأب وفتاة مع الأم بعد الانفصال، ولكن الفرق واحدة في الشرق وليس أي شرق،إنه الصعيد بتقاليده وعاداته المتزمتة والغرب وليس أي غرب،إنها أستكلندا المتحررة الفاقدة الهوية بين الأسد الإنجلوساكسوني وبين محاربي الألوية الحمراء.

شتت نحيبها تركيزي وأنساني ما أردت قوله لها.. لكن لدى عودتى للمنزل أدركت أنها تخبرني أن ما رأته كان شبح هيا، لكني أدرك جيدًا أن الأشباح لايقتلون.. الأشباح لا نستطيع لمسهم أو مصافحتهم.

إن دم سندس معلق في رقبتي لأن أدرك أن هيا حية ترزق تستمع بعذاب.
أبيها وشقيقتها بيها وشقيقتها وعذابي

أشعر أننا سنلتقي يومًا ما ويا له من يوم شاق.

أخبرتكم أن موقفي الصامت من إيهاب أصاب شرخًا في علاقتنا وصرنا نادرًا ما نلتقي، كنت أبتعد عن كل ما له صلة بالماضي، وصرت أخشى أن ألتقي بفريدة مرة أخرى.

الماضى الذي أبىأن يفارقني لأقابل فريدة البنداري لدى زيارتي لطب القاهرة، لأكتشفأنها مثلي تدرس الطب في السنة النهائية.. هي أبعد ما تكون عنشقيقتها.. هادئة وديعةكان شيء يتحرك في صدري لمرآها.. وجهها الشاحب يثير تعاطفي بشدة.. صافحتها بمودة ولم أطل الحديث معها فقد لاحظت توترها وعينها الزائغتين ورغبتها الشديدة في الابتعاد.

ترى ما تخفين يا فريدة أي كان ما تخفينه فهو أمر لا يبعث على الارتياح

إن حياتي تمضي هادئة بلا مشاكل وها أنا ذا قد قاربت التخرج متفوقًا على زملائي واضعًا في ذهني أن أكون متخصصًا في المخ وجراحة الأعصاب.
كانت المحاضرة ثقيلة من المحاضرات التي يكرهها الطلاب، لكنها شر لابد منه،إنها محاضرة التشريح عقبة الكثير من الأطباء،إنها الخط الفاصل بين آدميتنا وعملنا بين مشاعرنا وعلمنا.

لأول مرة نحضر تشريحًا كاملًا لجثة آدميةورغم أني طالب متمرس إلا أن شيئًامن القشعريرة أصاب مؤخرة عنقي، شيء في هذه الجثة مألوف.
انتبهت إلى صوت المحاضر الجثة لشاب في أوائل العشرينات طبعًا أصابها

الكثير من العبث، ولكنها كانت تحفظ في الفورمالين جيدًا يشير تاريخ الوفاة لعام مضى.

ضاعت ملامحه بفعل مشرط التشريح القاسي.

حين انتهى الشرح بدأنا طرح الأسئلة،استرعى حواسي كلها سؤالٌ: لِم له ساق أطول من الأخرى؟

أخبرنا الدكتور أن ثمة حادثة جرت جعلت ساقًا أطول من الأخرى. دارت بي الأرض، وانتهت المحاضرة وأغلق الباب، لكن ظللت في الردهة متربصًا حتى أتى المسئول لنقل الجثة لمكانها، تبعته في صمت.

دخل حجرة المشرحة وأعطى الموظف المسئول البيانات.

إنه ضالتي، اقتربت منه: لمن هذه الجثة؟غير مسموح يا حضرة.

وزادت حيرتي لأعلم أني لست أول من سأل عنه.. هناك شخص آخر سبقني، عرفت هذا والممرض يغمم:"لماذا تسألون عنه كثيرًا؟".اليوم نفحته مبلغًا محترمًا فتح كل أبواب الجحيم اسمه:"هاشم بشندي عسران، منتحر بالشنق في أسيوط". ثمة صور كثيرة له أنه نفس الهاشم.
ابن بشندي لقد رأيت جثته متوفيًا منذ عام،كيف لم أخمن علاقتهم منذ البداية؟عدت واجمًا مهمومًا للمنزل في نحو السابعة مساءً.. كان أبي مسافرًا.. غفوت على الفور متعبًا من التفكير وحينما استيقظت في نحو الحادية عشر كان ثمة خطب بإضاءة المنزل لعل عطلًا عامًا--خرجت باتجاه الحديقة أستنشق شيئًا من الهواء،

هناك في الركن المظلم كان قابعًا منحنيًا عليه غبار السنين. ارتعشت وأنا أهمس للجسد المتكور:

- بشندي، أنا أدرك أنك لست آدمي،

لقد مررت بالكثير من الأشباح الأحياء عليَّ أن أعترف الآن منذ وجودي في الطريق الصحراوي وحيدًا وأمي تنزف بين يدي.

لاشيء قادر أن يزيد مخاوفي فقد خرجت لي كلها مرة واحدة وتجسدت أمامي لا أحد سواي هناك.

لقد عادوا بكل قوة، عادهاشم ينظر إليَّ ساخرًاا من فوق درابزين السلم ومايكل يمسك سكينًا حادة يقشر به شيئًا ما، بشندي مازال يجلس باكيًا في أحد الأركان، نهلة مبتلة وقد انتفخ جسدها تنظر إلى بغِلٍّ.

سندس الحبيبة مبتلة راجفة،أريد أن أقترب منها ثم تشيح وجهها بقوة امرأة جميلة تشير إليَّ لتمنعني،إنها أمي..أمي الحبيبة.. التفوا جميعًا في عاصفة سوداء تحيط بي بينما صوت أمي يناديني:"وجيه وجيه.."

"استيقظ يا وجيه استيقظ"..

أفقت على يد تهزني برفقٍ،شمس حارقة على وجهي،أه لقد غفوت في الحديقة،هل كنت أحلم؟ لا أعلم،

لكن الركن القذر وقشر البرتقال يحيرانني كثيرًا.

إني على وشك الانهيار وهذا ما يبغونه.

همست: أبي..

تساءل في وجوم مؤنبًا ما الذي يجعلني أبيت في حديقة منزلنا بكامل ملابسي هكذا.. ربت على كتفه.. وأنا أدخل معه للمنزل ..حيث دخل غرفته لينام من متاعب السفر.

أخذت حمّامًا دافئا حتى أفيق من نعاسي المتعب الليلة الماضية، عليّ أن آكل شيئًا لأستعيد قوتي وتذكرت إيهاب.. سأمرّ عليه لناكل في أحد مطاعم الخان، اتصلت على هاتفه،أتاني صوتٌ أنثوي قائلًا إنه في المستشفى. وأنه تعرض لحادث

هرعت إليه،كان شاحبًا للغاية، مرتعبا وهو يقول بهلع

كنت على حق يا وجيه لقد هاجمتني بسكّين،إنها قوية للغاية ثم نقلتني للمستشفى أنا لا أفهم يا وجيه لا أفهم.

أتكلم معه طويلًا بعد أن علمت أنه أبلغ عن فريدة التي قبضت عليها الشرطة في محاضرة بالجامعة بعد الحادث بيوم.. لكن هناك شيئًا أنبأني أن فريدة مظلومة، ذهبت إليها كانت مرتاعة مذهولة.

أخبرتني أنها بريئة وقد تبرأ منها والدها وأهدر دمها لأنها جلبت له العار لزيارتها لشاب أعزب.

دفعت كفالتها.. وقد وجدت عددًا من الوجوه الصعيدية الحارة الدماء تنتظر فريدة للفتك بها، نجحت فى تهريبها بصعوبة دون أن يلحظنا احد .. وطلبت منها أن تغادر مصر كلها،إن الخطر عليها كبير،إنها تحمل جنسية أوروبية وسيكون من السهل السفر.

كان لي خالٌ في فرنسا، اتصلت به واتجهت فورًا إلى المطار، هناك حجزت على الأولمبية التي تتوقف في أثينا ثم تكمل رحلتها إلى باريس، مددت يدي ببعض الأوراق النقدية رفضتها قائلة:"إن حسابي في البنك كبير.. أشكرك".

كنت أود أن أستبقيها خاصة أنها ذكرتني بسندس.

ودعتها وطلبت منها أن تكلمني فور وصولها. قبل أن تمضي، وضعت في يدي كتابًا بالإنجليزية قائلة بغموض:

لست أدري كيف ستفيد منهُ.. ثم اكملت: كان بودي أن أنهي شرها لكن يبدو أننس أخرجته.

ثم أردفت: لدينا شيء واحد مشترك هو شر شقيقتي وأنت وحدك من سيقف في وجه الشر.

رددت بارتعاش: لماذا؟

لأن بينكما شيئًا مشتركًا.. ربما حادث ما.

كان العنوان "شبح الشتاء في أسكتلندا".

أمضيت ليلتي في القراءة، ثمة أسطورة عن شبح الشتاء المربع على التلال الخاوية، وكيف كانت تقدِّم القرابين البشريةلإرضائه.

ثمة سحر أسود في القصة.

إن هناك معركة تنتظرني في الحجرة الخاوية في أسيوط، السر كله هناك.

إن هيا مطلقة الحرية، هل لي القدرة على محاربتها؟

هل لي؟؟

* * *

مرة أخرى أعود إلى أسيوط راكبًا نفس القطار عليَّ أن أخوض التجربة بحذافيرها، أقرأ كتاب شبح الشتاء

لا أكاد أفقه فيه شيئًا، أشعر أن به بعض التعاويذ ومما استحوذ على انتباهي عبارة احترس أيها الباكي خلف قناع الإثم تختفي البراءة.

إنه تحذير شرير لكن لمن؟

لمن؟

يرن الجوال دون رقم، لابد أنها فريدة

- وجيه.. هل وصلت؟

صمتُّ:

-نعم .

-هل كل شيء على ما يرام؟

-بالطبع.

- فقط احترس.

-مما؟

-لا أدري، فقط احترس.

-ثم ينقطع الخط

-شتان مابين الشقيقتين.

أصل إلى أسيوط.. من أين سأبدأ، هل من الحجرة المنسية المهملة في آخر المدينة، أم المكتبة أم...

غارق في أفكارى وقدماي تقوداني إلى شاطئ النيل.

إنها تجلس هناك بنفس الملس الأسود وغطاء الراس الحالك السواد وأخاديد الزمن المحفورة على وجها..

تجلس صامتة..

عيناها المكحلتين ترمقانني في لامبالاة:

-لماذا عدت؟

أجبتها: هل أنتِساحرة؟ يا له من سؤال ساذج.

أدارت وجهها:

- إنيامرأة عجوز، بيني وبين القبر قيد أنملة.

- إذن أريحني.

- لا أستطيع،إنها الآن أقوى مني كثيرًا،أقوى للغاية،تلميذتي الأثيرة، لقد تعدت كل الخطوط، ليتك تستطيع إيقافها.

"ساعديني"أقولها في توسل،

- لاتنخدع فخلف قناع الإثم تختبئ البراءة.

نفس العبارة لمن التحذير؟

زجرتني في عنف: انصرف.

لافائدة من كومة العظام البالية هذه.

انصرفت مبتعدًا عنها وأنا أشير إلى سيارة أجرة تنقلني إلى المدينة الجامعية.

إنها العاشرة صباحًا وهناك حارس يقف أمام البوابة.أقترب منه.إنه نفس الرجل الذي أنقذني منذ سنوات وقد تغضنت ملا محه لم أعد أذكر إلا أنه حينما اقتربت منه تذكَّرني على الفور بل أخذني بحضنه.ثم جلست على الكرسيأمامه.

كان عم بديع يملك قلبًا دافئًا حنونًا وقد أخذت حقًّا بمعاملتهبعد أن شربت الشاي الصعيدي، قلت تمامًا مثل شاى بشندي نظر لي وجلًا:

- اسمع يا بني، لا أنكر أني سررت لرؤيتك بعد هذه السنوات لكن لماذا عدت؟

- أريد أن اعرف.

- دع الأموات تستريح يا ولدي.

-هناك ضحايا آخرون.

-أرجوك ساعدني حياة أقرب الناس لي مهددة، هناك شر يحيك بي لم أعد إلا لمحاولة معرفة سره.. هناك من تأذى بالفعل وأنا عاجز عن فعل شيء لأني لا أفهم.

دمعت عيناه وهو يقول: كيف أساعدك لو أستطيع لن أدخر جهدًا.

-من هو بشندي وهاشم ابنه

زفر في ألم:

- كان رجلًا طيبًا.كان يحرم نفسه من كل شيء من أجل ابنه. كلنا نحرم أنفسنا من أجل أولادنا ونترك بيوتنا من أجلهم. عمل غفيرًا في المدينة منذ عشر سنوات ثم قتل منذ نحو سبع سنوات بطريقة بشعة.

اندهشت: قُتِلَ! تساءلت في وجوم وأنا أذكر ليلة الرحيل:كيف ؟

يكمل بديع:

-إن هاشم فتى مسكين، انفصل عن واقعه ليهيم في عالم آخر.

مِن المحزن أن تنتهي حياتهم بهذا الشكل.لقد نزع قلب بشندي في قسوة، لم يعرف من قاتله إلا بعد عدة سنوات. يا اللهكان حادثًا رهيبًا..عثروا عليه ممزق الأوصال، منزوع القلب في الحجرة التي يقطنها.نفس الحجرة التي أعطوكإياها.

اقشعرَّ جسدي وأنا أتذكر النظرة الخبيثة للمشرف منذ سنوات .

-هل كان يعلمون هنا بهذا وأسكنوني بها؟

-شيء طبيعي أن يعلموا.

يكمل بديع:

-الغريب أن اسمك لم يكن مدوَّنًا في كشف الطلاب.

- هذه جريمة لكن لماذا؟

-يبدو أن الموضوع كان لهوًا ثم عندما لم تشتكِ نسوك.

-هكذا بكل بساطة؟

كنت مستاءةً أبغي أن أبحث عن المشرف لأفتك به.. وكأنه قرأ افكاري..

-لقد توفاه الله.. لقد صعق بماس كهربائي في مكتبه وقت الغداء ولم يسعفه أحد.

نظرت إليه ذاهلًا.

-لا تستغرب يا ولدي كم الحوادث التي جرت هنا بعد رحيلك. لقد انتشرت قصتك بين الطلاب بعد رحيلك وصارت لعبة أن يتراهنوا من سيبيت في الحجرة الملعونة.

وقد وجد طالبًا ممزق الأشلاء منتزع القلب مثل بشندي مما استدعى تحقيقًا شاملًا.

انتفض جسدي ثم سألته: وهاشم هو ميت كذلك؟

-جميعهم موتى.

-هاشم ماذا هو..؟أقصد ماذا حدث له؟

-لقد اختفى سنوات طويلة ثم عاد ليعمل في نفس مكان أبيه، ثم شنق نفسه منذ حوالي عام في نفس الحجرة التي شهدت مآسي.

ياللهول، إن الرجل يحكي الأمور ببساطة متناهية.

هناك شيء غير مريح في الموضوع؛ إما أنه رجل طيب للغاية أو أن شيئًا سيئًا سيحدث على يديه.

أفقت على يده الممدوة، هذه الأمانة تركتها منذ سنوات يا ولدي. لمعت السلسلة الفضية في نهايتها آية الكرسي، مما جعلني خجولًا من شكوكي.إنه رجل فطري للغاية.

شكرته في صمتٍ ثم مددت له بعض الأوراق المالية.

أزاح يدي في رفقٍ وترقرقتك عيناه بالدموع .

أنتظر.. اختفى دقيقة ثم عاد بكشكول ضخم

أعطانيإياه نظرت إلى العنوان "مذكرات فتى بائس"

لم يحتَج الأمر الكثير لأعرف مذكرات هاشم.

سألته: كيف؟

بعد وفاته لم يتقدم أحد من أقاربه لاستلام متعلقاته، ولم أستطع أن أعطيها للشرطة فلا طائل منها سوى مزيد من المآسي.. هنا في الصعيد لا قيمة للدماء يا ولدي ويبقى دائمًا القاتل طليقًا.

يصل الأمر أن تقبع ضحية بدلًا منه خلف القضبان؟ ولقد وجدت هذه المذكرات منذ أشهر قليلة حينما تقرر هدم المبنى الإداري وإخلاؤه، وجدتهاأسفل الفراش المهترئ في الغرفة 819.

نظرت إليه في صمت طويلًا

هل هناك شيء يا ولدي؟

هززت كتفي محتارًا

لماذا تساعدني؟

أشعر أنك كنت في انتظاري.

اعتمد بيده على المكتب وهو يقول في اكتئاب:

- الفتى الذي وُجِد ممزقًا كان ولدي.. بل ولدي الوحيد، لحقته أمه كمدًا وحزنًا في نفس الشهر.

أما لِم كنت أنتظرك، فستعرف من مذكرات هذا الشيطان اللعين، كان رجلًا بائسًا ويائسًا، لم أملك له شيئًا، إني أجبن من أفعل له شيئًا. عدت إلى القاهرة دون أن أجرؤ على قراءة المذكرات، تركتها في أحد الأركان.

لقد تعدى إيهاب مرحلة الخطر وصار حتميًا أن يأتي للنقاهة في منزلنا. تجاهل كلانا الآخر تمامًا، خاصة أني كنت مشغولًا في الامتحانات النهائية. تسألونني عن فريدة، لقد اتصلت بخالي وأخبرنيأنها لم تصل على الإطلاق. لماذا قابلت الأمر ببرود؟

الأمر ببساطة أني راجعت رحلة الطائرة الأولمبية، لايوجد اسم فريدة البنداري بين الركاب.

الوحيدة المدرجة في القائمة هي هيا البنداري.. ولكن هل هي هيا البنداري؟

أنا مشغول للغاية، وكل هذه الأمور فوق طاقتي وأمامي هدف آخر هو إرضاء أمي والحصول على لقب طبيب.

إن الامتحانات أوشكت على النهاية، والصيف قريب، ومذكرات هاشم تنتظر وشبح الشتاء خامد واهن في أغسطس الحار.

فريدة البنداري

أنهيت امتحاناتي ثم ذهبت إلى الإسكندرية التي لم أذهب إليها منذالحادثة كان في رفقتي إيهاب وأبي.

وذات أصيل وأنا جالس في التراسفي فيلا الشاطبي، جلس معي إيهاب وقد بدأ في التعافي.

لقد تنازلت عن المحضر ضدها.. لماذا يفتح هذا الموضوع المقيت؟

أخبرته أن الأمر لايعنيني.

كنت أعلم أنه مجروح وأنا طبيب لكن قسوة ما مررت به جعل إنسانيتي تتقزم بداخلي.

أنت لست متأكدًا، إنها هي تردد ثمة شيء تخفيه.

نظر إليّ في حيرة وقال: لن يصدقني أحد.

لو تكف يا إيهاب عن هذا الحديث، ولكنك تستمر لقد اقتربت يومًا من الجنون بسبب هذه الفتاة..

هل جربتم الفضول؟ هل عانيتم منه أنه صفة إنسانية أصيلة نُولَد بها ولا نكتسبها

سألته:أخبرني إن كان هذا سيريحك.

لن تصدق.

جرِّبني..

ابتلع ريقه وقال: كنت في المرسم أتصل بفريدة أنت لا تعلم شغفي بها. لم أرد.

أردت أن أراها لكني منذ أن أنهيت اللوحة وطلبت هي أن تبقها عندي فشلتفي رؤيتها بل كانت تزجرني مرارًا.

ما سر هذا التعلُّق؟

أجابني في ابتسامة واهنة: كلانا دماؤه مختلطة ورايتها مناسبة لي.
إذن فقد جرحت كبرياءك؟

شيء من هذا القبيل؛ لذا هجمت على الصورة كي أمزقها شر تمزيق إلا أن ماحدث كان عجيبًا..

ماذا؟

لقد سمعت صرخة أنثوية مذعورة ثم وثبت من الصورة وطعنتني.
من التي طعنتك؟

أخبرتك أنك لن تصدقني.

كان عليَّ التظاهر بالغباء وعدم الفهم، فماذا سأخبره، فرغم تجربته المريرة هو الذي لن يصدقني.

هزَّ كتفيه: أقسم لك لقد قفزت من الصورة.

إذن ليست فريدة.

أنا لم أرَهيا هذه أبدًا، أنت رأيتها ورأيت فريدة، ما رأيك؟

إذن لماذا تنازلت مالم تكون متيقنًا؟

أنا متعب يا وجيه، متعب، ثمإن ما حدث بعد ذلك جعل ذهني مشوَّشًا.

لقد أصبحت فريدة شخصيتين كانتا تتصارعان فوق رأسي.لقد صرخت كالمجنون والدماء تتناثر من كتفي فوق موضع القلب، وقد غاص السكين حتى مقبضه.. يا إلهي كان هذا مؤلمًا وأنا أشاهدهما فوق رأسي

تتقاتلان.. إن ما رأيته هو الجنون بعيه.. ماإن تجمَّع الناس حتى غاصت فريدة الغاضبة في الحائط واختفت وبقيت فريدة اللاهثةتحاول نزع السكين من كتفي.. ثم ظلام ولم أستيقظ إلا في المستشفى.

ربتت على كتفه.إن إيهاب مخلوق واهن للغاية وليس لديه القدرة على مواجهة هذا الشر الأسود.. لكن هل لي أنا؟

أويت إلى فراشي متأخرًا.

تاتيني أحلامي

سندس واهية باكية

وجيه وجيه

ما بك يا حبيبتي

لقد قتلت شابة بلا ذنب يا وجيه وأنت سكت

أنت يا أكثر من أحببت

تأنيتي نهلة مرتعشة

لم أكن طيبة معك لكن أنا أيضًا قُتِلت صغيرة وأنت السبب.

ثم بشندي باكيًا مرتعشًا

ثم عم بديع

أيها الرجل الطيب، أنت لست هنا.

لماذا لا أرى منه سوى الدموع؟

أستيقظ.إنها الثامنة والنصف، أتصل بالمدينة الجامعية في أسيوط لينزل الخبر على رأسي كالصاعقة؛ لقد قُتِل بديع وانتزع قلبه في قسوة.

إنها موجودة.أشعر بها قريبة.. تستغل الفرص لإيذائي وقتل من يتقرَّب لي.

لقد رأيت شبح بشندي وحاول تحذيري وفلت من قبضتها، ولكن يدها الشريرة طالت سندس ونهلة ثم إيهاب ثم بديع.. أشعر أنها قريبة وأن إيهاب ليس بمأمن، هي تتهيأمورها بالدم.. يا إلهي، هي تعشق الدم وليس أي دم هو دم القلب مباشرة .

أبحث كالمجنون في شنطة اللاب توب لأجد مذكرات هاشم مع عدة فنجانين من القهوة المُرة أقرأ ما ارتعدت له فرائصي. كتب هاشم بخط مهزوز

أنا هاشم بشندي عسران، فرحة أبي، الأول على محافظة أسيوط، كنت أتمنى أن ألتحق بكلية الطب لكني ابن رجل فقير بل إن الفقر ليخجل منه لكن لابأس من كلية الآداب في القاهرة لأبتعد عنه، لقد كان رجلًا طيبًا، لكن ما الفائدة وهذا الفقر الذي يفتك بنا؟إني أعمل في كافيتريا الكلية أيضًا لأكتسب بضعة جنيهات تعينني على الحياة وقد فاتني الكثير من المحاضرات وصار الفشل حتميًا حتى قابلت فريدة البنداري فتحت لي أبواب النعيم كي ألتظى في النهاية بالجحيم .

كانت مثلي؛ فقدَت أمها في حادثة.. أمها ماتت في حريق ببيتها، وأمي غرقت حينما كانت تغسل ملابسي البالية في ترعة القرية.

كانت في نفس القسم وقد ساعدتني كثيرًا

لكنها الشيطان بعينه

إنها ساحرة الإثم اللعينة

حدثتني عن أخوَّة الدم وعن كنوز مخبأة في قلب الدير البحري.

كنوز لا تُفتّح إلا على دماء وليس أي دماء.. كي تكون عضوًا في أخوَّة الدم يجب أن تضحي بدم أقرب مَن لك من موضع القلب.

كملت قراءة ما كتبه هذا المريض المعتوه، المريض تحدَّث أشياء كثيرة ومريعة عن حفلات ماجنة وقربان بشري.. أشياء مثيرة للتقززأشياء مريعة. لقد ضمنت ولاءه بقربان بشري بأبيه ببشندي لقد أقاموا له حفلة وانتزعوا قلبه في قسوة وشاركهم هاشم في التهامه؛ لارضاء شبح الشتاء الرهيب، ثم أغنية في المذكرات.

فارس أسكتنلندا يهيم في الجبال بلا رأس

إن الصقيع أتى والفارس ينتظر

من ستغرب الشمس عليه اليوم

حينما تختفى البراءة خلف قناع الإثم

تأتي الفارسة البيضاء وتأسر ساحرة الإثم

يا ساحرة الإثم استيقظي، دماء الضحايا تزيدك قوة

لقد قرأت الأغنية فانطلقي مغرّدة

صرخة مريعة مرتاعة تنطلق من حجرة إيهاب يا إلهي ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟!

طرت إلى حجرة إيهاب مرتاعًا، كان منكوش الشعر ولم يفق من النوم بَعد، ولكنه كان سليمًا وفي حالة جيدة، فقط مذعورًا، مددت له يدي بكوب ماء.

شربه ثم استلقى مرة أخرى على الفراش ونظر إليّمتوسلًا:"ساعدني".. ماذا هناك؟

لقد حلمت بها تحذرني وتطلب منّي أن أمزق كشكولًا قديمًا تملكه أنت،

لقد لفّت بإصابعها حول عنقي.

ربتت على يده:

إيهاب،إنها مجرد أحلام.

لكن نظرت إلى عنقه رأيت أثر أصابع حولها

إذن هي تخشى بقية قراءتي، ولكن لماذا لم تكمل قتل إيهاب؟

السبب أنها واهنة وهذه فرصتيوقد تكون الأخيرة

عدت إلى قراءتي بعد أن جلست بجانب إيهاب لأتفادى المصائب وقد نام كالطفل

أغنية أخرى

أميرة الثلوج الجميلة في كهفها الحجري

تنام ناعسة غافية

أيها الفارس الباغي طعنتك غادرة

في ليلة مظلمة مددت يدك الآثمة

قلب الأميرة ينزف

اقطعوا رأس الباغي ودعوه تحت قدميها

ارقدي يا جميلة في قبرك الثلجيّ

وسيهيم الباغي إلى الأبد فوق التلال

سيمضي ضائعًا بلا رأس

يومًا سيلتقي حمراء الشعر

الساحرة البيضاء ستقف في وجهه

لترسم البسمة فوق شفاه الأميرة اليابسة

لكن حمراء الشعر الأخرى آتية

من قلب الشرق الساحرة السوداء

ستموت على يد ذي القلب الحجري

أفيق على صوت فحيح غاضب، تقف هناك وقد تغضن وجهها، ثمة شيء في الأغنية الأخيرة.

أقرأها مرة أخرى بجانب جسد إيهاب الغافي..

تصرخ بصمت والنار تلتهم جسدها:

ما هذا السحر؟

تتلظى الساحرة بالنيران

أرى سندس باسمة

نهلة تشير إليَّ شاكرة

يستيقظ إيهاب، أشير إليه ليصمت

عم بشندي ضاحكًا.

هاشم يشير إليَّبعلامة النصر

ثم عم بديع ينظر إليَّ مبتسمًا

أناس عديدون يخرجون من جسدها ثم يمضون

أنا أقرأ وجسدي يرتعش

ساعة مرت وأنا محموم وإيهاب يشد أزري

رماد متخلف على أرض الغرفة

أنهار وأسقط في غيبوبة

وحين أفيق، أجد وجه أبي القلِق ووجه إيهاب الصديق

لقد تحررت

تحررت

صار سرّنا هذا أنا وإيهابّ.

سِرّنا الأبدي الذي ميَّز لوحات الرسام الشهير الموهوب.

لقد انتهت الساحرة السوداء .

لكن بقى فقط أمر الساخرة البيضاء .

التي قابلتها بعد عشرة أعوام في اسكتلندا في مؤتمر طبي.

إنها الطبيبة الشهيرة هيا البنداري طبيبة الطب النفسي.

نفس الوجه الطيب الذي قابلته يومًا عند إيهاب.

نفس النظرة الوادعة، مددت يدي لأسلم عليها. دعتني للعشاء بعدها

كانت تعلم أني في ذهنيألف سؤال.

أخبرتن يأنها التي عاشت مع أمها في أستكلندا منذ كانت في العاشرة وأن فريدة عاشت مع أبيها.

ولقد عانت الأمرّين من جبروت أبيها القاسي، ولقد استولت عليها إحدى ساحرات الصعيد.

ثم أردفت: لقد عدت إلى الأقصر وأنا في العشرين لأرى شقيقتي التوأم، وهالني ما رأيته من حالها؛ لقد طلبت مِنّي أن نتبادل الشخصيات لتسافر هي إلى أمي التي منعت عنها.

وصرت أنا فريدة وهي هيا دون أن أدري شيئا بأثامها.

كانت الشقيقة الشريرة قد أمضت عامًا في أوروبا ولابد أنها اطّلعت على أسطورة شبح الشتاء وأميرة الثلوج الجميلة التي قتلها.

واندمجت في أحد جماعات السحر الأسود ثم انتهى الأمر بحريق المنزل وقتل أمي،لقد ظننت أن فريدة ماتت

لكنها أصبحت أقوى وأشر.

لن تدرك ما أقول، لكن ماوراء الطبيعة عِلم واسع

أكملت: وهكذا تمكنت من أسرها في اللوحة بعد قتلها سندس ونهلة، لقد كان شرها مستطيرًا، شرًا خالصًا، لم يكن بيدى شيء آخر،لكن ليس أنا من حبسها في اللوحة،في الحقيقة أنا وجودى بشخصية فريدة في مصر أذاقني الأهوال من والدي ومن ضحايا فريدة، ولم أكن أستطيع شيئًا

بمفردي لولا مايكل باسيلي والساحرة العجوز هما من ساعداني. تعجبت هل استيقظ ضميرهما!

ولكن أين مايكل الآن؟

آخر ما سمعت أنه تنيح في أحد الأديرة واعتزل العالم الدنيوي. والساحرة قد طواها التراب. لقد كانت عجوزًا ولعلها أرادت أن تكفر عن آثامها. أنت محظوظ يا وجيه أنك فلتَّ من هذا السحر الأسود. هي لم تكن تبغي قتلك بل أرادتك أن تتبع إخوة الدم مثل مايكل وهاشم. جميعكم لكم أم ماتت في حادثة وهذا هو الشرط الأول للطقس.

تنهدت بخفوت.

- أعترف أنه لازمني شيء من الخوف طوال تلك السنوات وكثيرًا ما تساءلت أين أنت وما حدث لك.

سألتها وأنا أنظر إلى أناملها الخالية.

هزت رأسها بالنفي.

كاد الفجر أن ينبلج لتنير الشمس الأرض الطيبة.

رنوت إلى هيا لترمقني بنفس النظرة الدافئة التي أسرتني منذ سنوات.

تمّت بحمد الله

* * *

الجزء الثاني

رسائل من العالم الآخر

إنهم يبعثون لنا رسائل من العالم الآخر

لدى بعضنا فقط هبة مالاستقبال هذه الرسائل، لكن القوانين الإنسانية لا تعترف بها. فنقف عاجزين عن مساعدة أصحابها.

- 1 -

شبح فتاة

لي صديقة شابة مفعمة بالحيوية، رقيقة وجميلة تدرس في العام قبل الأخير في إحدى كليات القمة.

وقد تأخرت عامًا في دراستها لأن لها ولع بالتجارة، فكانت تحضر المعارض المختلفة وتبيع سلعًا قد لا تجدوها إلا لديها..كانت أسعارها جيدة. في رفقة صديقتي مساعد شاب، يرافقها كظِلّها وهو طالب أيضًا في نفس الكلية وفي نفس عمرها. علمت بعد لقاء قصير أن الفتى مولع بها كثيرًا، وأنها تعشقه بل وتساعده بكل طاقتها، ولكن شيئًاجعلني أخبرها بأن تكون حَذِرة ولا تترك مشاعرها واضحة هكذا، فالفتى واضح أنهيستغلها، ومشاعرها المتدفقة لا يستحقها.

انقطعت عنّي الفتاة شهرين ثم جاءتني فجرًا رسالة من رقم مجهول باسمها وأنها ترجو مساعدتي.. لن أطيل في القصة وأتعرض لأحداث مشاكلها مع عائلتها فقد حاولت كثيرًا مساعدتها دون جدوى. وذات مساء، شعرت بإحساس مفزع فاتصلت بها في الثانية بعد منتصف الليل.

جاءني صوتها الملائكي عبر الأثير بأنها في خير حال وأن المشاكل انتهت مع عائلتها وأن الزواج في القريب العاجل.

سألتها هذه الليلة أن تقرأ ما تيسَّر من القرآن الكريم وأن تدعو الله كثيرًا. استيقظت وأكملت عملي الذي يفتك بوقتى واعصابى ونمت كعادتى في الثانية بعد منتصف الليل

جاءتني في الحلم ترتدي غطاء رأس أسود وتبستم ثم تلاشت. استيقظت فزعة ،ثم أكملت نومي، وعاودت نشاطي كالمعتاد.

في اليوم التالي، قبل الثانية ميعاد نومي لمحتها في غرفتي ثم تلاشت كالوميض. ضحكت من نفسي: أفكر فيها كثيرًا، ولعلّ إرهاق الأعصاب هو ما جعلني أتخيل أشياء.

نائمة حتى الثمالة في يناير البارد أتصبب عرقًا غزيرًا وهي تنام بجواري.. لا أعرف كيف جاءت.

تهمس في أذني بصوتٍ سحيق: روان إننا في أعماق القبر.

تقبض بيدها الهيكلية على ذراعي

يختني صوتى وتفشل كل محالاوت الصراخ بينما تضايقني رائحة عطنة

ثم أستيقظ دفعة واحدة

أتصل بها دون جدوى، يجاوبني الصمت"عذرًا هذا الهاتف مغلق" لم تكن مفاجأة خبر وفاتها في أحد المنتديات التي تجمعنا.

كاد الذهول والألم يفتكان بي،ورغم هذ، الشابة جميلة لم تكمل الثالثة والعشرين من عمرهاولا أحد يشير مطلقًا لكيفية موتها، لكنها أخبرتني؛ جاءتنى في الحلم تقف وخلفها فتاة.

هي تصلح شيئًاما فوق أحد الأسطح، ثم تطيح بها الفتاة من أعلى وتسقط جثة هامدةمن الدور الرابع.

بعد عام

كان الخبر الذي نشرته الجرائد:

" مصرع فتاة كانت تصلح سلك النت من الدور الرابع"

رأيتها ورأيت تفاصيل بيتها الذي لم أزره أبدًا.

في الأيام التالية احتلت الشقة وحرمتنى النوم .

ألمح وميض يتراءى كلما غفوت ثم يتلاشى بغتة.

أنام دائمًا ونور الغرفة بل البيت كله مضاء.

لقد أذاقتني العذاب .

كلما تملكني النعاس تهز أشياء في الغرفة.

لا أكاد أنام إلا والقرآن الكريم بين ذراعي

ولم تغادر إلا وأنا أشغل كل يوم إذاعة القران الكريم

هل تعاتبني على صمتي

أنا أصمت لأنه حلم، مجرد حلم ولا دليل لدي سواه على أنها قتلت أنا أصمت لأنها ليست واقعًا

أصمت لأنها رسالة من العالم الآخر

رسالة لن يعترف بها أحد

أصمت لأني لا أبغي ظلم أحد

ولا أبغي نبش قبرها

ولأن النيابة العامة أخلت سبيل الجميع

وسجّلت الحادث على أنه سوء حظ لفتاة اختل توازنها

ولسوء حظي أنها لم تجد غيري

* * *

(2)

(تجربة صديق)

سيدة شاطئ القمر

باقي ثلاثة كيلومترات على قرية شاطئ القمر السياحية.. قرأت بفضول وأنا أنحرف بالسيارة يسارًا تجاه المكان الغافي في خمول على البحر الأحمر، حيث قررت أن أقضي بضعة أيام للاسترخاء بعيدًا عن المشاكل وفرصة لالتقاط بعض الصور المميزة للمكان،غممت في انبهار وأنا ألقي نظرة خاطفة على الشاطئ الهادئ،ومياهه الزرقاء تتهادى عليه برِقَّة وألفة.. وهمست في غيظ:

- أه سلمى لو تغاضيت عن خلافتنا الزوجية وقضيت معي بضعة أيام هنا.

لم يكن في الاستقبال سوى ذلك العجوز الذي سلَّمني مفتاح الغرفة وتمنَّى لي إقامة سعيدة.

في الرابعة صباحًا صنعت جذوة نار صغيرة على الشاطئ تمنحني بعض الدفء وبدأت في بعض الصور.. لخيبة أملي.

حُصِرَ جذر المياه فتعرّى الشاطئ.. عليَّ الدخول قليلًا لقلب البحر لو أردت صورًاأفضلكانت هناك.. تلك الغريبة.. تمضي أمامي تشق البحر المظلم بقامتها الممشوقة وشعرها الغجري وتنورتها المزركشة الطويلة.. غممت في سخرية:"لست المجنون الوحيد الذي يعشق البحر لحظة ميلاد الشمس".. فجأة غطست الشابة في المياه ولم تظهر ارتعت ماذا تنوي هذه المجنونة.. سارعت مذعورًا لأجدها مسجاة على وجهها فانتشلتها بيدٍ واحدة من شعرها.. صرخت في غضب وهي تبعد يدي بعنف وألم.. ماذا تريد.. من أنت؟يا لها من مخبولة هل تمارس رياضة ما!! لم تخرج الكلمات من فمي، نفضت ثيابها وهي تمشي نحوالشاطئ ثم جلست بجانب جذوة النار التيأشعلتها ترتعشوتبكي قلت: "سيدتي أنا آسف ولكني ظننت أنك تنوين الانتحار".

هزت رأسها لا بأس.. كانت تلف شعرها بعصابة حمراء ظهرت من أسفلها خصلات شعرها الغريب بين الأحمر والأشقر البلاتيني.تبدو في أواخر العشرينات.. لديها وجه جميل رقيق رائع للتصويرنظرت لي مستاءة من تحديقي فيها ثم ألقت نظرة على الكاميراقلت في ارتباك.. أشرف رشدان.. مصور صحفي.. أردت التقاط صورٍ للشمس والبحر من لحظة الميلاد حتى الإشراق الكامل.

أشارت لي بالجلوس وهي تقول في رقة:

هدى الشافعي.. رسَّامة.. أنا أعشق تصوير الظلام والنور، لكن من الأعماق حتى السطحنظرت تجاه البحر في حزنٍ وهي تقول في خفوت: إن الظلمة مخيفة في الأعماق، لكني اعتدت عليها.. حينما تصل لمنطقة العدم تتلاشى كل الأشياء لا ألم.. لا فرح.. فقط سلام وظلام.

فجاة، هبَّت ريح شديدة فأطاحت بعصابتها الحمراء بعنف.. التقطها لأعطيها إياها وهي تلملم شعرها.. راعني ذلك الجرح الملتئم من صدغها حتى منتصف رقبتها ولم أعلِّق سوى:

يا له من جرح مميت.. نظرت للخاتم حول خنصري وهي تقول في مكر:
- متزوج.. أين أسرتك؟ رددت:إنهم في القاهرة.. متزوج ولدي ابنة.

نظرت نحوى في فضول: كم عمرها؟

- مايا في نحو العاشرة. نظرت مرة أخرى بحزنأشد نحو البحر وأردفت:

- لي أيضًا ابنة.. لكن لم يتسنَ لي أن احضر عيد ميلادها العاشر أبدًا.. بعد العاشرة ستتحول طفلتك لبداية الأنثى.. ستخوض تلك السِّن الحارة بالمشاعر.. تصارع في لياليها الصاخبة بالحلم والأمل تارة.. والحلم والألم تارة أخرى.. وحتى إن انكسرت مشاعرها عليَّ أن أكون بجانبها كدفقة الطاقة أمتص حزنها.. أقبل دموعها أخبرها أنها الأجمل في العالم كله.. لأنها ابنتي.. فجأة مددت يدها بالعصابة وسلسلة ذات قلب ذهبي:
- أعطِها لابنتك.. قل لآية أنني أحبها. غممتُ في تأثُّر وقد صدمني كلامها:
- ابنتي اسمها "مايا" وليست "آية"، وهذ السلسلة والقلب هدية ثمنية لا أستطع قبولها.

رفعت سبابتها محذرة: إنها هبة البحر فلا ترفضها.. تذكر البحر يأخذ ولا يعطي أبدًا وإن أعطى فإنه شحيح في عطاياه. نظرت لها متعجبًاوهي تضع في راحتي العصابة والسلسلة.. وقد بدأت خيوط النور تتسلل.. فأسرعت للكاميرا معتذرًا.. فقالت: لابأس، سأبقى جانب النار قليلًا.. ثم صرخت: "انتظر.. رجاء أخبر آية أنني أحبها كثيرًا".. كدت أقول ابنتي اسمها مايا،

لكنها وضعت رأسها على ركبتها ولفتها بذراعيها وراحت في إغفاءة خاطفة وقد تناثر شعرها الأحمر وخصلات البلاتيني لتغطي وجهها.

فكَّرتُ أن ألتقط لها صورة ولكني تراجعت.. وانشغلت لمدة ساعة بالتقاط الصور للبحر والشمس من أول خيوط الضوء حتى لحظة الإبهار الكامل وكأن الشمس تخرج من جوف البحر.. حينما عدت لرفيقة البحر لم أجد منها سوى العصابة الحمراء تتهادى بخفة على الرمال.. خمنت أنها ذهبت لحجرتها لكن الخطوات الغائرة على الرمالالمتجة ناحية البحر أفزعتني.. هززت في ذهولٍ: لا يمكن أن تكون فعلتهافي خطوات متسارعة. ذهبت للاستقبال.. سألته في فضول عن حجرة السيدة هدى الشافعي نظر لي في استغراب ثم نظر للدفتر أمامه.
-آسف لا نعطي معلومات للنزلاء.

قلت في سرعة:

- لكن سيدي أخشى أن يكون مكروه أصابها، من فضلك تأكَّد أنها بخير.
نظر لي نظرة متفحصة وهو يغلق الدفتر أمامه: سيدي،إننا في نهاية الموسم.. لانزلاء هنا سواك.

تركته وأنا أعود للشاطئ وقد ارتفع المد وأخذ في طريقه كل شيء حتى بقايا النار وخطواتها الصغيرة. نظرت في حيرة للبحر وتذكر السلسلة والعصابة الحمراء فوجدتهما.. هززت رأسي في خفوتهناك شيء غامض.. ربما تحتاح السيدةألا يعرف أحد عنها شيئًالذا فقد كذب الرجل.

اتجهت لغرفتي ورحت في نعاسٍ خدر سريع.. ثمة طرقات على الباب وصداع حاد يضرب رأسي.

فتحت الباب في خمول لتطالعني شابة في أوائل العشرينات، قالت في خجل: معذرة..

-أريدك بخصوص هدى راهب..

مازال الصداع يضرب رأسي،لكنه كان كطرقات المدفع وهي تقول :أنا "آية" ابنتها وابنة صاحب الفندق.

بعد دقائق التقيت "آية " في غرفة الاستقبال.. لم تكن تملك منأمها سوى عينيها الحزينتين الواسعتين وقد وقفت أمام لوحة رسمت الشُّعَب المرجانية بإتقان وحرفة.. حملت توقيع هدى راهب الرسامة الشهيرة.

جلست آية وهي تفرك يدها في عصبية: سيدي.. من أين أتيت باسم هدى الشافعي.. إنه اسم أمي الحقيقي.. ولا يعلمه أحدٌ سواي.

أخبرني عم صالح مدير الاستقبال بالأمر.. فأتيت من القاهرة على وجه السرعةحرت في إجابتي:

- مستحيل أن تكوني ابنتها.. هي لا تكاد تكمل الثلاثين ترقرقت عيناها بالدموع:

نفس السن التي اختفت فيها منذ خمسة عشر عامًا.. قبل عيد ميلادي العاشر.. أتت هنا.. ولم تعد.. لم نعثر عليها مطلقًا.. إن لغز اختفائها لم يُحَل حتى الأن. ترددت كلماتها في ذهني. الظلمة مخيفة ولكني اعتدت عليها.بالطبع اعتادت عليها.. فقط لأنها تسكن الأعماق.. انخرطت آية في البكاء لم أستطع أن أزيد حزنها.. قلت لها بتردد.. مهما يكن فقد قابلتها.. هدى راهب أو هدى الشافعي.. لأنها أرادت أن تنقل لك رسالة.. نظرت لي آية بعينيها الواسعتين وقد ظللهما الحنان وهي تستمع لرسالة أمها:

فقط أخبرتنيأنها تحبك "آية" وأنها أحبتك دائمًا.. وأنه رغم ما حدث ورغم كل شيء فإنها ستظل تحبك..

تركت لك هذا.. مددت لها يدي بالسلسلة والعصابة وهي تأخذهما في حضنها، تذكرت كلمات هدى راهب لم يتسنَ لي أن أحضر ميلادها العاشر أبدًا. اتصلت بسلمى زوجتي أتاني صوتها باكيًا. لا تبكي سلمى لن نفترق أبدًا سنصلح الأمر.علينا أن نحتفل معًا بعيد مايا العاشر. همست في فرح:انتظر مايا تريدك، مايا نعم بابا، بابا يحبك كثيرًا ماياقبل الغروب.

ألقيت نظرة أخيرة على البحر قبل أن أرحل خُيِّل لي أنها هناك تبتسم فوق الأمواج اللاهية في الغروب.. بينما وقفت آية تنظر للسلسة والقلب الذهبي والشاطئ يبتعد رويدًا رويدًا.

* * *

- 3 -

كانت هنا كانت هنا

جرت أحداث القصة من فترة قريبة، وبالتحديد بعد ستة أشهر من ثورة 25 يناير.. تلك الفترة التيأعقبت فكَّ الحظر مباشرة حيث افتقدنا نوعًا ما من الأمن في الشارع، وتلقّينا تحذيرات من الأهل والأصدقاء بعدم القيادة بعد العاشرة ليلًا.كانت شوارع القاهرةالفتية خامدة بعد العاشرة مساءً خاصة الشوارع الرئيسية وضواحي القاهرة، وصاخبة في الأحياء الشعبية الدافئة المترفة بدفء أهلها والمنعمة بأمنٍ لم تشهده أي منطقة راقية ينام سكانها منذ التاسعة وليس العاشرة مساءً.. مثل حي الهرم حيث تقطن أمي الحبيبة رافضة المغاددرة حيث أسكن في مصر الجديدة.. متشبثة بجيرتها الطيبة وعِشرة اعوام طويلة ووجوه تألفها لأنك ببساطة عرفتها في شدة وفرح.. لكن ظروف العمل هي التي جعلتني أغاذر حي طفولتي لأسكن قريبًا من مكان عملي.

ولا يمنع رغم أن لأمي خمسة أبناء غيريأني المفضلة دائمًا لحل المشاكل، أي مشاكل مهما كان نوعها أو حتى عدم وجودها، أو ربما لأني الأسرع في الاستجابة، وعشرون دقيقة تفصلنا بالسيارة ليست بالأمر الكثير حتى لا أستجيب لطلب أمي في العاشرة مساءً.

ماهي العاشرة مساءً في فترة لا أمن فيها؟ لا شيء.. تحدثنا في هذا سابقًا.. انتهيت بعد كثير من طول البال والمجادلة في حل المشكلة في نحو الواحدة صباحًاأو لنقل أني قررت أن الواحدة صباحًا كفيلة بإنهاء أي مشكلة وقبل أي اعتراض وفي لمح البصر كنت أقود سيارتي متخذة شارع فيصل لأنه الأقصر خاصة في فترة انعدام المرور.

عرفت من عقارب الساعة انه قد مر واحد وعشرون دقيقة، كانت لمحة بسيطة لألتفت بعدها للطريق لأجدها هناك قابعة ساكنة بأسمال بالية بين الكوبري الفارق لاتجاه صلاح سالم وجامعة القاهرة.. تقبع في الزواية تلملم ثيابها المتسخة الممزقة.. طفلة هي.. شعرها مشعث على نحوٍ مثير للشفقة.. رأيتها بكل تفاصيلها بركبتها الدامية ويديها الصغيرة وقد اتخذت وضعًا جنينيًّا.. وتجاوزتها وهي تنظر لي بعينيها البريئتين في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

مضت نحو خمس دقائق وأنا أسير في طريقي، يؤنبني الضمير بطريقة خافتة ثم تتعالى كإيقاعٍآت من أرضٍسحيقة وضحكة تجلجل في أعماقي:

"جبانة"

هكذا وجدت نفسي أغيِر المسار وأعود مرة أخرى بعد حوالي عشر دقائق وقد أشارت الساعة إلى الواحدة والنصف متخذة قرارًاأنني يجب العثور على هذه الطفلةوإيداعها في مكان آمن بأي طريقة.. وجدتها بنفس تفاصيلها ونفس بؤسها الذي كان يتضح أكثر وأكثر كلما اقتربت.

ركنت السيارة أعلى الكوبري على مؤشّر الانتظار نظرت لمرآة السيارة أرقب الطريق حتى لا تأتي سيارة مسرعة وتحملني للعالم الآخر.. فتحت

باب السيارة.. وقبل أن أضع قدمًا واحدةعلى الأرض، نظرت للطفلة ونظرت لي بعينيها المشعتين، ثم تلاشت..

نعم تلاشت ..

بكل بساطة لم أجد سوى السراب.

ليس لدي أي تفسير ولن أبحث عن تفسير.. فكم من المرات التي قدت فيها السيارة في ساعات الليل الواهنة ووجدت مثلها أمامي تقبع بنفس الملابس الممزقة والحالة الرثةلنساء ورجال وأطفال ثم لا شيء،لاشيء على الإطلاق.

أدركت حقيقتهم مؤخرًا من ملامحهم وتفاصيلهم الدقيقة جدًّا وكأنها صورة في خيالي وليسوا بشرًا على بُعد أمتارٍ منّي فلا أتبين بالطبع تفاصيلهم، أو كانعكاس سراب الماء في الطرق الصحرواية.

الماء قريب جدًّا واضح، ولكنه في الحقيقة غير موجود.

هم فقط يختارون بعض البشر لينقلوا لهم شيئًا من مأساتهم، وأنا من البشر المحظوظين بهذه الهبة

ويالها من هبة.

* * *

من قصص المنزل المسكون

كانت تجربة مع بعض الأصدقاء في منتدى التكية أن نكتب
قصص رعب ينقلها من سكن منزل ما في القاهرة
في ليلة يجتمع فيها سكان المنزل ليروي كل منهم لماذا غادر هذا
المنزل الرائع.

ترويها لكم د. فدوى النواوي (أستاذة طب الاطفال).

أنا فلسطينية مصرية من جهةالأم، ولكني عشت حياتي كلها بعد وفاة أمي في أحضان عائلة أبي في قطاع غزة،وشاءت الظروف بعد حصول على إجازة الطب من الأردن المجيء للقاهرة بعد غياب عشرين عامًا للحصول على رسالة الماجستير في طب الأطفال.

بالطبع لديأقارب في القاهرة ميسورو الحال، لكني رفضت الإقامة بشكلٍ قاطع لدى أي منهم، من جهة حتى لا أكون عبئًا على أحد، ومن جهة أخرى كنت أعول على أن أنهي الرسالة في نحو العامين مما يتطلب الوقت القليل جدًّا لأيأنشطة اجتماعية وعائلية .

لذا بحثت برفقة ابنة خالتي المدللة طالبة الفنون الجميلة هايدي المناوي عن شقة في مكان جيد وبسعر مناسب، ولقدوجدت ضالتي في هذه الشقة .

حينما وطأت قدمي لأول وهلة عرفت على الفور أنها معبر لأرواح من العالم الآخر، هل كنت أنجّم!! ..مطلقًا.

بل هو أم واقعي خبرته كثيرًا، إني فلسطنية من غزة والحياة هناك يرافقها الموت والقتل بصفة دائمة، فالأشباح صارت هناك أكثر من الأحياء، بل لازلت أذكر ونحن صغار في نحو العاشرة حينما هاجمنا بعد اليهود بالحجارة هربنا من بطش نيرانهم إلى المقابر ملاذنا الآمن.. لذا فإن الكتابات الحائطية والوجوه الشيطانية لم تكن تشكِّل لي أدنى مشكلة بل كنت أقابلها بكل ترحاب وتسلية.

تقولون إني فتاة قوية الشكمية وذات قلب فولاذي.. في الحقيقة هذا ما كنت أعتقده إلا أن الأحداث انقلبت تمامًا:فقد أتت ابنة خالتي هايدي للإقامة مَعي جبرًا غاضبة من أبيها، ولابنة الخالة هذه عادتان أولهما: غطرستها الشديدة، والثانية: دلالها الشديد.

في اليوم الثاني من وصولها عمَّت الفوضى مطبخي الهادئ بعد قيامها بسلق بعض البيض،أجلستها على المنضدة وشرعت أنظف غاضبة من الفتاة المدللة التي كانت تكلم أباها بحدة في الجوال خاصتها وتقول بكل عنف:

اطرد هذه الكلبة فورًا، وتكمل: إنها خادمة وضيعة.

كان صوتها مرتفعًا وحادًا وهي تضرب يدها في الهواء وقدميها في الأرض. وخلف هذا المشهد الغاضب تراءى لي طيف فتاة في نحو الخامسة أو السادسة عشر.. تشعشث شعر رأسها على نحوٍ عنيف تقف فوق رأس هايدي، ثم تلاشت بغتة.

عادت هايدي لبيتها في نفس اليوم، ومنذ ذلك اليوم لم تعد الحياة سهلة في البيت؛فكنت أسمع صوت النواح في كل مكان، كان صوت الفتاة مريرًا يضج_ مضجعي ويسلب النوم من عيني.. عدا اختفاء أشيائى واحتراق بعض ملابسي.

تقولون هذا شبح غاضب

أقول بل شبح يحمل مأساة

لقد أحالت حياتي جحيمًا حقيقيًا وصار من المستحيل التركيز في هذه الشقة حتى صرخت لِمَ تفعلين هذا وللمرة الثانية منذ مجيء هايدي مرة

تراءى لي طيفها لعدة ثوانٍ ثم تلاشت بغتة لكنها كانت كافية لأعرف عنها الكثير.

تقاطعني في سخرية: وهل تتكلم الأشباح أيضًا؟

لا يا سيدي،إنهم ينقلون أفكارهم بوسيلة ما عبر أدمغتنا.. سمّها دفقة من الطاقة تعبر بسلاسة لتخبرنا أحداث سنوات وسنوات لفتاة ريفية سكنت هذا المنزل في تسعينات القرن الماضي، رأيتها يا سيدي تقبع في حجرة صغيرة بعد يومٍ مُضنٍ من العمل الشاق، رأيتها خائفة من تحرُّش رب البيت بها، رأيتها مغتصبة وباكية ثم رأيت بطنها يتكور والسيدة تسأل وتصرخ والفتاة تشير للرجل الكبير.. فتنهال الأرجل والأيادي عليها وتصمت للأبد في قبرها أسفل شرفة المنزل.. هل اقول للك كم بكيت من أجلها أيامًا وأيامًا

تقول هراء وتخيلات

لا، لقد أخبرتني اسمها مريم، لقد صارت صديقتي بل حاميتي من ساكني المنزل الآخرين الذين رفضوا في إصرار الكشف عن هويتهم واختفت الأشياء المربعة وصارت الشقة ملاذًا دافئًا وهادئًا.

تسألني لماذا إذن غادرت بعد ستة أشهر.

لقد عادت هايدي مرة أخرى وهذه المرة،أقامت لمدة أسبوع وقد أثارت غضب مريم كثيرًا بحديثها عن خادمتها الأخرى وهي تصف بكل تلذُّذ طرق إنغاص حياتها وعاد النواح والبكاء بصورة خافتة وقد حدثتني نفسي يا ليت الوجوه المربعة تظهر مرة أخرى حتى أتخلص من الفتاة المدلّلة وتعود لأهلها.

لكن في تللك الليلة البعيدة منذ نحو خمسة عشر عامًا، كنت أطهو بعض البطاطس التي أعشقها لوجبة العشاء، وقد دخلت هايدي وهي تمثّل التلوي من الجوع وتطلب ببساطة نوعًا غاليًا من الجبن الغير متوافر لدي، من عادتها الطلب تكرارًا ومرارًا.

أومضت النار على الزيت الساخن وهرعت للمحل بجانب البيت لإحضار طلبها.

وما إن وصلت حتى انقطعت الكهرباء عن الحي بأكمله وتعالى الصريخ من المنزل وصوت ارتطام أشياء وصراخ بشري هلع.

هرع عاملو المحل معي، وبعض الجيران من المنازل المجاورة وعلى ضوء الشموع، وجدت الشقة في حالة فوضى مريعة ثم عاد النور مرة أخرى وقد جذبنا جميعًا صوت الأنين المتعالي من المطبخ،لأجد منظرًا بشعًا: هايدي ممددة وقد انحنى جسدها على نحومريع وتشوّه وجهها أسفل طنجرة الزيت المغلي.

وسُجّلَ الحادث على أن القاتل مجهولٌ.. لم أستطع إخبار الشرطة بموضوع مريم.. رأيت أنه لا فائدة من نبش قبر الفتاة.

أنت بالطبع يا سيدي تعرف بقية القصة، لقد تركت الشقة بلا رجعة فقد أضيف لساكني الشقة ساكنة جديدة، وهي من الإصرار حيث لن تتركنيأغفو للحظة بيد أن لها ثأرًا خاصًا مع شبح آخر أو مع أشباح آخرين من الساكنين السابقين.

لقد عدت الليلة لأسمع من سكان المكان بعدي بقية الأحداث..فهل هنا من يروي فضولي؟

* * *

الصغير

(من قصص المنزل المسكون)

ترويها مريم بدران

عدت اليوم لأني كنت من سكان هذا المنزل المسكون، لعلّ قصتي تكون الأغرب بينكم وربما تكون الأكثر مأسوية.

اسمي مريم بدران، يعمل زوجي في مهندسًا تقنيا في إحدىأكبر شركات دبي - وما أدراك ما هي دبي- مدينة تلتهمك وتلتهم دخلك، على قدر ما تعطي على قدر ما تأخذ، لذا كان من المستحيل أن أكمل المعيشة أنا وابنيبرفقة زوجي هناك خاصة أني لم أستطع العمل بهذه المدينة الجامحة. عدنا للقاهرة الحبيبة أنا وكريم ابني ذو الأربعة أعوام وبضعة أشهر ليلتحق بإحدى المدارس التي عملت بها، ولكن العقبة كانت أن شقتنا في منطقة نائية وغير مأهولة تمامًا وغير آمنة تمامًا.

أمضيت شهرين برفقة حماتي وابنتها المطلقة..

شهران كافيان تمامًا لأتخذ قرارًا بالبحث عن شقة تلائم دخلي وتكون قريبة من مدرسة ابني.. صدقوني ذُهِلتُ حينما علمت بإيجارها الزهيد؛

خاصة أن بها بعض العفش القديم المعقول.. تخيلت أن كل أسباب السعادة مُهّدَت لي.لعلّي أحظى أخيرًا ببعض الهدوء وقد مرَّ الشهر الأول برتابة. لاشيء مثير للريبة سوى تلك القطط السوداء التي تحتل السلم أمام الشقة ويتزايد عددها يومًا بعد يوم. هو أمر يبهج كريم ابني تمامًا.الذي يثيره فراؤها الناعم وعينها الخضراء الفيروزية. لكني وبخته تمامًا حينما وجدته يلهو مع القط الأسود الصغير – وسألته كيف سرَّبته عبر الباب دون أن أدري.. يا لك من طفل ماكر.أمسكت القط من فرائه الناعم وألقيته خارج الشقة ولم أبالِ ببكاء كريم الصغير وأنا أجرّه جرًّا للحمَّام كيف أنظفه.

تكرر حادث وجود القط كثيرًا حتى إني سئمت الأمر برمته وتركته. وكان هذا بداية الكارثة.

في يوم راس السنة وهو يوافق عيد ميلاد كريم، اتصل زوجي ليطمئن، كان صوته قلقًا ولكني طمأنته.

أردف يقول:

مريم، لقد قدمت على هجرة للولايات المتحدة الأمريكية وثمة وظيفة تناسبك وتناسبني- لكن الأمر ليس مؤكّدًا بعد- تعرفين أنه مرَّ عامان على حادث الحادي من سبتمبر فهم يقبلون العرب بصعوبة.

همست: ليتنا نجتمع يا حبيبي.

أحسست باختناقه ولكن هأكمل في صوت مرح:

-ماذا تفعلين اليوم في عيد ميلاد كريم؟

قلت: اليوم لدينا حفلة صغيرة، لقد دعيت اثنتين من مدرسات المدرسة وصديقة، لديهن جميعًا أطفال في عمر كريم،أردفت في عجالة: أه باقي على مجيئهم ساعة، وأنا لم أجهز بعد.

وضعت "الموبايل" جانبًا وأنا أضع قالب الجاتو والتورتة ذات الألوان المبهجة المزيَّنة بقطع الشيكولاتة السوداء والبيضاء وكريم ينظر لها مبهورًا، قبَّلته من جانب أذنه وهو يضحك مسرورًا،هيًّا يا بطل،أكملت اليوم خمسة أعوام يا حبيبي، هيًّا لترتدي ثيابك الجديدة.

مشَّطتُ له شعره وأكملت لبسي، باقي دقائق لوصول الضيوف،ألقيت نظرة على الحلويات، لم أصدِّق عيني فهناك من أكل كل وردات الشيكولاتة البيضاء دون يعبث بالتورتة نظرت لكريم ونظرته البريئة لكنه كان برفقتي، تجولت ببصري لعلِّيأعثر على الرفيق الصغير الزج، أعني به القط الأسود الصغير الذي لا يكبر أبدًا فوجدته يلعق أطرافه بهدوء وينظر لي بتحدٍّ.. كدت أفتك به لولا جرس الباب.

جاءت ثريا ولميس وبسمة وخديجة ومعهم ثلاثة أطفال ولد وبنتان.

أمضينا وقتًا ظريفًا حتى حانت لحظة إطفاء الشموع،أطفيت الأنوار، ووسط البهجة والصراخ لخمسة أطفال، نعم لم أخطئ في العد هم بالفعل خمسة، ثلاث للصديقات وابني كريم وطفل آخر في نفس سن كريم، طفل ذو شعر أسود ناعم جميل، يرتدي"شورتا" قصيرًا وقميصًا بأكمام قصيرة أيضًا،ورموش سوداء طويلة للغاية، كان وجوده طاغيًا وسط الأطفال ليس لشكله المميز فحسب بل للكنته الأجنبية الواضحة وهو يلفظ أغنية عيد الميلاد،أطفأنا الشموع ودست على أزرار النور فلم

تستجِب، عدت لإضاءة الشموع والبحث عن الكشاف، ولم يقلل هذا ببهجة الاحتفال وقد روادني الفضول لمن من الصديقات هذا الطفل فقد كان برفقة الجميع يتحرك بخفة الفراشة، إنه طفل سعيد، لكن يبدو أني ضعيفة الذاكرة، ثم جلست وحيدًا متباعدًا، جلست لأعطيه نصيبه من الحلوى فتقبَّلها منّي بفرح،

سألته بخفوتٍ: ما اسمك يا صغيري؟ قال بلهجة: (آسر).

من والدتك منهم يا ترى؟ نظر بتجاه الصديقات اللاتي انشغلن بإطعام الأطفال،

وأردف في أسى وبنفس لكنته الأجنبية:

-ولا واحدة، جوليا لاتحب الحفلات.

عاد النور بغتة ولم أجد آسر أمامي، تلاشى الصغير تمامًا،أخذتني الدهشة وعيني ترتطم بعينيْ القط الأسود الصغير الذي لايكبر أبدًا وقد عاود لعق أطرافه وحملت عيناه نظرة الرضاء قبل أن يتكور بجانب قدمي وينام،

هتفت لميس وهي ترقب القط الأسود ولعلها كبقية الرفيقات نسين الصغير: قط أسود، اطرديهإنه نذير سوء، هل كنتِ محقة يا لميس وأنا لم أصغَإليك لا أنا ولا بقية الصديقات،أخذنا كلامك على محمل السخرية.. كان الحديث عن الجن والعفاريت وما وراء الطبيعة، لم أتابع الحديث كله فقد كان ذهني منشغلًا تمامًا بالصغير الذي تلاشى تمامًا.

انتهى الحفل، وخلدت أنا وكريم للنوم، كان يستمع لحكاية ما قبل النوم،وقبل أن يغفو في أحلامه قال وهو يتثاءب إن آسر يحب حكاياتي.

اقشعرّ بدني، إني لا أتخيل ولا أتوهم لم أنطق بحرف وسهرت طوال الليل حتى نمت من الإرهاق.

صحوت متأخرة فقد كنا في إجازة، لم أجد كريم بجواري.

وجدته في الصالة يلهو بقطار قديم الصنع،إحدىألعاب الأطفال التي اشتهرت في السبعينات.

سألته بدهشة:من أين لك به؟ قال في مرح: هناك كثير من الألعاب. قادني لحجرة صغيرة في الشقة لم أهتم بها كثيرًا،وفي خزانة متهالكة وجدت العشرات من الألعاب الصبيانية، ألعاب قديمة ولكنها بحالة جيدة، لطفل سكن هذا المنزل من قبل ولم يأخذ ألعابه، أي طفل هذا الذي ينسى ألعابه، وجدت ألبوم صور قديم وسط الألعاب، أخذته لأتفحصه لاحقًا بعد أن أعددت لنفسي كوبًا من النسكافيه المركّز وصنعت بعض شطائر الجبن والبيض لكريم، يأكل كريم كثيرًا مؤخرًا وهو أ مر يسعدني كأم لكنه لا ينمو بسرعة، أعطيته الشطائر، وقلت بلوم:أعطي للقط شطيرة واحدة تكفيه، ابتسم ابتسامة عابثة ولكني لم أعرف سر النظرة القلِقة لديه، ماذا لدى ابن الخامسة ليخيفيه عن أمه.

تناولت ألبوم الصور الملقى وأنا أرتشف كوب النسكافيه بخمول. إنه هو بنفس الشعر الأسود الناعم والعينين المميزتين وقميصه القصير وبنطاله القصير، يحمل قطًا أسود صغيرًا تحمله امرأة شقراء ذات ملامح أجنبية، قلبت ظهر الصورة، لأقرأ العبارة باللغة الإيطالية التي أجيدها:

"جوليا وآسر صيف 1972"

صرخت في ارتياع للتاريخ الذي يعود لثلاثين عامًا تقريبًا، وقد انسكب كوب النسكافية على الأرض وأحدث ارتطامه بها دويًّا، لافيق على صوت صراخ من طرف آخر، صوت مؤلم وسقوط على الأرض.

وجدته ملقى على الأرض، وقد بدأت النيران تشتعل به، غطيته بأقرب بطانية وأنا أصرخ وأجري به على السلم وقد خرج الجيران على صوتي، كنت قد بلغت حد الانهيار وأحد الجيران يأخذ من بين أحضاني ويهرع معي للمستشفى.

لم أستطع الإجابة على اشتعال النيران في قميص ابني كريم من الخلف ولا ارتطام رأسه ولا الكف السداسيةالدامية التي انطبعت على ظهره الرقيق، مازلت بملابس البيت وجاري يحثني أن أذهب لإحضار ملابس لي ولكريم، انتبهت لحالي، أعادني لشقتي وشكرته لمساعدته، كان باب الشقة شِبه مفتوح وقد دخلت كل القطط السوداء كانت تقف في وسط الصالة في دائرة نصفية تحيط بالقط الصغير، زمجرت فيهم وأنا أطرهم خارج الشقة إلا هو، القط الأسود الصغير بقى ولم ترهبه ضرباتي ولم تؤثر به .

نظر لي بإشفاق،أمسكته بعنفٍ وأنا أدخل به المطبخ وأبحث عن الكبريت وأصرخ: سأحرقك كما حرقت ابني، إنك شيطان، تملَّص من يدى وهو يموء بغضبٍ، لاحقته حتى الحجرة الصغيرة، اختفى،ولكن آسر كان موجودًا بعينه المميزة وشعره الأسود الناعم كان يلعب بألعابه، تلمكتني الفشعريرة، وهو يهمس بصوتٍ مخيفٍ:

اصمتي.. جوليا لا تحب الصراخ ولا تحب أن يعبث أحدٌ بأشيائها الخاصة .

صرخت: أيها اللعين، ماذا فعلت بابني؟

أمسكته من شعره، صعقني ألف تيار كهربائي لأرتطم بالحائط، وجدت نفسي ملقاة على الأريكة

وآسر يحمل كوبًا من الماء.

همست بضعفٍ: من أنت؟

قال بخفوت:

- إن جوليا أمٌّ طيبة، أما أبي فدائم الشجار معها والتغيب عن المنزل. جوليا تحضر لي كثير من الألعاب، الكثير من الألعاب ثم تدخل حجرتها لتبكي.

ارتعشت: أرجوك لا تؤذني، لدي ابنيكريم بحاجة إليَّ.

همس في ضعف:

-أنت أيضًا أمٌّ طيبة، لكن ما كان يجب أن تدعي كريم يلهو بالألعاب، ولا تفتحي البوم جوليا، بهما الكثير من الشر.

قالها بنظرة مليئة بالأسى:الألعاب شريرة.

نظر للساعة،إنها الحادية عشر، يولد القمر عند الثانية عشر، يولد معه شرهم. إن شرهم قوي، لن تستطيعي معه شيئًا، همس في ضعف: اذهبي.

نظرت في عينيه الدامعتين، وجدته على الأرض يحترق وتلك اليد السداسية الأصابع تترك أثرها على ظهره العاري.صار رمادًا، مسحت الدمعة من وجهه المحترق وقد تحركت عيناه لأعلى، لأجدها معلقة من رقبتها، لقد قتلت جوليا نفسها شنقًا، مازالت تتأرجح في الهواء والكرسي ملقى أسفلها، همس آسر في أسى:

- لم تعد جوليا أمًّا طيبة، في عالم الأشباح تختلف الأشياء.قالها وهو يقف بجسده المحترق بيني وبينها وهي تشعل النيران به. فتحت باب الشقة لأنجو بنفسي، كانت الثانية عشرة إلا عشر دقائق وقد كبرت القطط السوداء وتحوشت وأحاطت بي، تذكرت قول آسر "لن تكتمل قوتها إلا مع ولادة القمر" وقد انقطع نور السلم وأحسست بفرائها، لم يضع الوقت بعد، طرت عبر السلم، جريت كالمجنونة والقطط في إثري وارتميت أمام أول تاكسي ليأخذني بعيدًا بعيدًا.

لم أعد للشقة من يومها، حتى لو لأشيائي الخاصة ولا حتى لبعض النقود التي ادخرتها، عدت للمستشفى وقد تفهَّم السائق حالتي ولم يطلب أجرة، اتصلت من هناك بزوجي، ودخلت بعدها في انهيار عصبي لمدة ثلاثة أشهر.

كان كريم قد تماثل للشفاء وحصل زوجي على تأشيرة الهجرة لأمريكا وودعنا حياتنا هنا.

تسألونني لماذا عدت بعد عشر سنوات، لقد قُتِلَ كريم وزوجي في حادث إطلاق نار في نيويورك.

حدث الأمر في بداية ولادة القمر، لقد عادت القطط السوداء أمام منزلي هناك، وقد استطاع قطّان صغيران منهم الدخول للمنزل، عدت ببساطة لأني خائفة، فهل هناك من يروي فضولي ويشرح لي الأمر.

مريم بدران، مدرسة لغة إيطالية.

* * *

منزل آخر مسكون

هناك منازل مسكونة تمتلئ بحكايات سكان العالم الآخر

- 1 -

شبح اليوم الخامس

الوغد يلاحقني بنقره المتواصل، زجاج الغرفة يلاحقني .

"سيدي، إني أوشكت على الجنون"

هتفت به أزجره بعنفٍ. فقد دلف ذات ليلة دافئة في أوائل مارس إلى القسم حيث أعمل ضابطًا في نوبات المساء بعد الثالثة من منتصف الليل، يهذي بهذه الكلمات.

تفحصته بعيني المدرَّبة.. رجل متوسط القامة في أوائل الثلاثينات.. ملابسه غير مرتبة وإن كانت جديدة وغالية.. وذقنه غير حليق ذو قامة متوسطة ووجه وسيم.. انهار على المقعد أمامي،هتفت أعماقي:"هناك شيء يفزع هذا الرجل أو أنه مخادع.. ولكن لماذا يأتي بقدم !!"

سألته عن اسمه

أخبرني: حازم الأسيوطي..

يعمل مدير مبيعات السيارات.. أخرج بيدٍ مرتجفة كارنيه العمل لإحدى شركات السيارات الشهيرة القابعة في مصر الجديدة.

حكى لي عن بدايته حينما أتى من قريته الصغيرة طالبًا في كلية الإعلام، وقد وجد وظيفة ساعي في الشركة، لكنه بفضل موهبته في البيع تمكن من إحضار عدة زبائن للشركة مما جعل صاحبها يعنيه في التسويق وكيف ارتقى سريعًا بفضل موهبته ليصبح المدير العام للتسويق وهو في الثانية والثلاثين، وقد مكّنه عمله كثمرة لكفاحه من الحصول على هذه الشقة الجديدة في أحدأحياء مصر الجديدة الهادئة في دور أرضي لبناية لا ترتفع عن أربعة أدوار، قالإنه كان محظوظًا بهذه الشقة ذات الشرفة الخلفية لأنه يكره الأدوار العليا ولديه عقدة منها.. وظل الحال هادئًا.. أعزب يعيش بمفرده منذ ثلاث سنوات، يعتني بحديقة الشرفة ويزرع ما طاب له من مسك الليل والياسمين.

ثم يكمل بصوتٍ مرتجف لم تفلح السيجارة التيأشعلها في التقليل منه: حتى ذاك اليوم يا سيدي منذ أربعة أشهر..

-عادة أنام منذ العاشرة حتى أستيقظ في السادسة صباحًا، لكن في تلك الليلة هزَّ غرفتي صوت ارتطام شديد مصحوبًا بصراخ ثم أنين، هرعت لأفتح الشرفة لأجد ذلك الجسد البشري الممزّق على نحوٍ بشع وقد تفجرت منه الدماء حتى غطت على أزهاري البيضاء وجحظت عيناه إلى ما لا نهاية لرجل كهلٍ حليق الرأس ضخم الجثة.. صرخت وصرخت وقد استيقظ جميع سكان حيّنا الهادئ وهرعوا إليَّ ثم...

ثم ماذا؟ سألته

ابتلع ريقه

-لا شيء يا سيدي، اختفى، وقد احتقن وجهي وأنا أسمع لمرات الجميع عن الكابوس الذي أفزع جارهم الشاب المنعزل عنهم. وقد اقتنعت أنه كابوس بالفعل، وصرت أنام وأنوار الشقة كلها مضاءة وقد عاد كل شيء لطبيعته حتى الخامس من الشهر التالي وتجدد الأمر بجلبة أكثر وصراخ أكثر.. وتجمع الجيران ونصحني أحدهم بزيارة طبيب نفسي.. وقد فعلت وأعطاني حبوبًا مهدئة وأشياء من هذا القبيل، ثم...

قاطعته ساخرًا :

-لاتخبرني.. حدث ارتطام ووجدت القتيل كما هو في اليوم الخامس من الشهر التالي .

ابتلع ريقه وهو يقول: بالفعل، ولكني كنت أتوقعه ولكني لم أفتح الشرفة وظللت طوال الليل أستمع لأنينه وحش رجات موته المؤلمة.

كان النوم يداعبني وأعماقي تهتف:هذا الرجل مخبول.. لكنه لم يتلفت لنعاسي وهو يقول بصوتٍ مرتجف:

- بدأ يضايقني لأني رفضت فتح الشرفة.. أكاد أراه يقف هناك.. ينقر على الزجاج وقد التصقت جحمته الممزقة بها.. ثم وجدته أمامي في الغرفة وجهًا لوجه.

- ماذا!!! هتفت في دهشة وقد استيقظت حواسي كلها .

- أنا لا أكذب، أقسم بالله إنها الحقيقة، وجدته يقف منتصبًا عاريًا، وجهه في وجهي والدماء تساب منه.. هربت منه وهو يلاحقني بإصرار.. فجئت هنا.

استرخى كتفا حازم بعد أن أنهى قصته الغريبة .

كانت الساعة تقارب الخامسة صباحًا وبدأت خيوط الشمس تشرق.. وقد هدأ حازم نوعًا ما وأنا أحاول طمأنته والأخذ ببناته بعد أن كتب بلاغًا للشرطة لمساعدته ،وكيفية الاتصال به.

ودَّعني بعد أن بدأ يرتب ثيابه ويستعيد ثقته بنفسه.

حينما لمحته من شرفة القِسم وجدته وقد ركب سيارته الفاخرة. فهتفت أعماقي: أي لعبة يلعبها الرجل؟!

استغرقت التحريات عنه يومًا، لا فشخص مثل حازم الأسيوطي واضح وضوح الشمس وقد أثبت صدق كلامه وأيّدها الجيران بأن جارهم الهادئ ينقلب فأرًا مذعورًا يصرخ فياليومالخامس من كل شهر. كانت الأمور توحي كلها بأنه نوعٌ من الضغط النفسي وأنه ضحية كابوس أو وهم.

لكن أزهار حديقة الشرفة الخليفة الممزقة ووالأصص المكسورة توحي بأن شيئًا ثقيلًا وقع عليها شيء.. ربما جثة بشرية أو... من يعلم... هناك شيء تعلمناه في كلية الشرطة لا يوجد دخان بلا نار.. وثمة قصة خافية وراء حازم الأسيوطي.. لذا كان عليَّ أن ازوره في مكتبه.. لأجد شابًا هادئًا وسيمًا واثقًا في نفسه كثيرًا ويدير عمله ببراعة نادرة.. كان الجالس أمامي لا يمت بصلة لذاك الشاب المذعور الذي دلف مكتبي في الخامس من الشهر و...

الحقيقة أنه بعيدًا عن عملي فقد جذبتني قصته تمامًا، ما بالك أن نوعية حازم الأسيوطي، أعني به حازم ما بعد ليلة الرعب من النوعية

المغناطسية التي تجذبك بلا سابق إنذار وفي غضون الأيام القلائل التالية،توطدت علاقتي بحازم كثيرًا خاصة أنه شاب دمث الأخلاق لا تكاد تكتشف من طريقته العملية الماهرة أصله الريفي البسيط. ومن الغريب أنه رغم انطواء حازم الاجتماعي الواضح،إلا أنه كان سعيدًا بهذه الصداقة بيننا. فقلما مضى يوم دون أن نلتقي.. حتى قارب الشهر على نهايته،سألته وهو يزورني هذه المرة في مكتبي بصفة ودية:

- باقي عدة أيام على الحدث.

عندئذ ارتجف جسده وازرقَّ وجهه بشدة حتى خُيِّل لي أني أرى مسخًا بشريًا وقد تفصَّد جبينه بالعرق وهو يرتجف.

- لقد نسيت..

سألته في دهشة حقيقة: نسيت.. هكذا بكل بساطة نسيت؟

وهو يقول بلهجة هادئة مفاجئة يهزُّ كتفيه في استسلام:

-لا أملك سوى هذا.

كان هدوؤه نقيض زياراته الأولى مما أثار ريبتي. لذا عرضت عليه أن أبيت لديه ليلة الخامس من الشهر للمرة الثانية حينما قبلَ بكل ود وارتياح. كانت الليلة هادئة وقد بتُّ في نفس غرفة حازم المنسَّقة ذات الألوان الهادئة بين الأزرق الفاتح ودرجات الأبيض. للحق هو لديه ذوق رفيع في كل ما يختصه. ويعبق غرفته رائحة مسك الليل عابثةأريج الياسمين عبر هواء الشرفة.. هتفت في أعماقي هذا الرجل يملك قلب طفل يتناقض تمامًا مع عقله المتقد دومًاالذي يخبو مع دقات العاشرة مساءً موعد

نومه.. فلا بأس يكون موعدي أيضًا.. وقد أصررت على غلق الأنوار لأني لا أطيقها.

من الغريب أني غرقت في نومي بسرعة..

أطنان من التراب تغلق عينيَّ

ما هذا الحُلم المخيف؟!

ارتطام مكتوم وكثير من الدماء تغطيني

إن يدي مبتلة بالفعل

يا إلهي!أطنان التراب تغمرني هكذا خُيِّل لي

ما هذه الأنّات بجانبي

أنتفض.. ليس بحُلمٍ على الإطلاق؛ فحازم يرقد بجانبي وثمة شيء يجثم فوقه ويزهق روحه.

وعلى إضاءة الموبايل الواهنة، وجدته برأسه الحليق وجسده الممزق وقد أزعجه الضوء فتقدم نحوي

وتقدم فوق الفراش، يتعالى الأزيز و...

ثمة إضاءة تغمر الغرفة

اختفى كل شيء، وحازم يصرخ مرتجفًا وقد احمرَّ وجهه وهو يقول لي بصوت واهن طفوليّ مرتجف:

- ألم أقل لك من الخطر إطفاء الأنوار.

خرجت من ذهولي:

-أي عبث شيطاني هذا؟!

أي عبث شيطاني هذا؟!

هرعت للشرفة بخطوات ثقيلة حيث يرقد الجسد جاحظ العينين فصرخت وصرخت وحازم يشاركني سيمفونية العبث والصراخ المتناهية عالية الأوتار،

كانت النتيجة أن الجيران استيقظوا وتجمعوا وخرجوا بنتيجة واحدة مؤلمة قالها أحدهم بضجرٍ

"صار المجنون مجنونين.."

وتمادى في إيلامى بتهديده بضرورة إبلاغ الشرطة للإزعاج.

في الصباح بعد أن جفا النوم عيوننا، طلبت من حازم أن يأخذ إجازة ويذهب لمكان آخر.كان هدفي إبعاده عن الشقة.

الصداقة شيء وواجب ضابط الشرطة شيء آخر وهناك شيء مريب.. فرغم رؤيتي للشبح.. فهذا أمر لا يكتب في التقارير وسيُقابَل بسخرية كبيرة من الرؤساء.

المهم أن حازم وافق على الفور، وأخبرني أنه ذاهب لأسرته فيإحدى القرى الريفية الصغيرة.

وفور ذهابه تم إصدار تصريح بتفتيش المكان رأسًا على عقب.

وقد استغرق الأمر يومين وأنا أقف مع الفنين، حتى تذكرت أصص الزهر المكسورة، فطلبت منهم حفر أرضية الشرفة.لم يكن الهيكل العظمي الرابض في أعماق الشرفة مفاجأة لي بقدر ما كان إحباطًا شخصيًّا لأني صدقت هذا الوغد الوسيم الخلوق المخادع المسمى حازمالذي ارتاع لحظة القبض عليه ولم يجد تفسيرًا للموقف، وقال وسط دموعه:
-عامر -وهو اسمي-..إني بريء.

زجرته بعنفٍ على رفع الألقاب بيننا، وتغاضيت عن صراخه وهو يقول:
- أرجوك لا تتركني وحدي في الزنزانة،أرجوك.

هتفت أعماقي: تستحق ما يحدث لك أيها القاتل.

ولكن شيئًا في ضميري جعلني أطلب من الحارس أن يهتم بإضاءة غرفة الحجز.
من قالإن للحراس قلب أو شفقة واهمٌ.

وهكذا أغلقت ملف القضية وتركت حازم لمصيره وذهبت لبيتي مرتاح الضمير.
نمت.. وبعمقٍ، حيث أتاني حازم في أحلامي.

عامر

أنا بريء

كاذب

عامر،اسمعني أنا بريء لكن براءتي في يدك.

الأمر بيدك وحدك.. لم يعد باستطاعي شيء

ثم يبتعدد ويتلاشى وصوته يدوي في أذني

استيقظت على الفور واتصلت بالقِسم لأعلم بالكارثة، فلم يهتم الحارس بإضاءة الغرفة ولقى المسكين مصرعه بسكتة قلبية مفاجئة.

موته الفجائي هذا أصابني بصدمة رهيبة، خاصة وأنا أتسلّم تقرير الطبب الشرعي عن الهيكل.

الهيكل يعود لأكثر من خمسة وعشرين عامًا..

من المستحيل أن حازم قتله

لكنه تم دفنهمنذ مدة بسيطة.

صدمة أطاحت بعقلي.. حتى إني كرهت النوم فكلما غفوت يأتيني في أحلامي، أقول له سامحني.

فيرد بطريقته الدمثة

لا أستطيع

وسأبقى في أحلامك طالما لم تساعدني

كيف أساعدك؟

كيف؟

هل الحُلم حقيقة؟

هل يلتقي الموتى والأحياء

كان هذا السؤال الذي سألته لأمي و...

أخبرتكم أني كرهت النوم لأني ألقى حازم في أحلامي وأن الظنون أطاحت برأسي، فما كان يحدث أمر لم أعهده في حياتي.. وقدساءت صحتي لعذاب ضميري لأني سجنت مظلومًا من ناحية وقلة نومي وصورة حازم تطاردني كلما غفوت.

كان من الصعب على أمي الطيبة أن تراني في هذه الحالة السيئة يومًا بعد يوم وقد أخذت إجازة مفتوحة من عملي لظروف مرضية. وقد حاولت المسكينة أن تسبر أغواري، وقد خشيت أن أخبرها بما أعاني وبما مرَّ بي من أحداث تفوق الخيال..غير أنها لم تيأس حتى أخبرتها ولم تزل تنصت لي تارة وتارة تشهق وتربت على صدري كطفلها الصغير، والأكثر أني الظابط الهمام. أخذت في البكاء والنشيج وأنا أقول إني على حافة الجنون يا أمي، فحازم يلقاني كل يوم في أحلامي، إنه ميت.. ميت وأعلم أن ما أقول محض أوهام وقد يكون ما مرَّ بنا محض أوهام.

فتنظر لي نظرة عتاب وتقول: لو كنت تواظبعلىقراءة القرأن الكريم لعلمت بني الحبيب أن الموتى والأحياء يلتقون.. وأن ما تراه حقيقة.. ثم تنهض وهي تقول: أيها الضابط الشجاع، لا تخذل هذه الروح التي تستغيث بك.

وقفت: كيف يا أمي كيف؟ إنه لا يخبرنى شيئًاويطلب منِّي المستحيل.. قد يكون أحدهم دفن الهيكل القديم دون معرفته.. ثم أتساءل أمام أمي المنصتة، لكن لماذا؟ربما نوع من الدعابة الثقيلة.. ربما نوع من الانتقام.. ربما صدفة.. ربما آلاف الأشياء.

وأضع رأسي بين يدي مرة أخرى والأفكار تتصارع بداخلي.

عامر.. أخبرني كيف يأتي لك

أقول كما هو.. كما قابلته في مكتبه.

ثم أردد وقد سطعت الحقيقة أمام بصيرتي.. هكذا هو.. الأمر يبدأ من مكتبه وليس من الشقة.

حينما نمت هذه الليلة.. زراني حازم وأنا أقول له: "حازم،ألك أعداء.. هناك من وضعك في هذا المأزق" فلا يرد..

الأمر يتعلق بعملك.. مَن يا حازم.. من لديه هذا القلب الآثم لينزع هيكلًا من مقبرته ويدفنه مرة أخرى في منزلك وحازم صامت ويهم بالرحيل فأضع يدي على كتفه وقد راعني أني شعرت به فهل أنا ميت أيضًا؟!

أخبرني: كلا يا صديقي هو موتة صغري.. موتة النوم.. وأنا ميت الموتة الكبرى..

ثم يتلاشى..

في الصباح كنت أرتدي بزتي الرسمية وأذهب لعملي.. حينما استقبلني العميد يحيى الفوال .

هتفَ: أيها الرائد.. مرحبًا بك.. هل قطعت إجازتك؟

أجبته: نعم يا سيدي،فنداء الواجب أقوى من أي شيء.

وأخبرته باختصار عن شكوكي في قضية حازم.

قاطعني:

- القضية أُغلِقَت يا عامر.. وقد مات صاحبها.

قلت: لكن سيدي هناك مجرمون وراء هذا الأمر.. وبدأت أروي له تفاصيل القصة من بدايتها.

حكَّ ذقنه بسبابته.. وهو يقول: لقد مرت بي غرائب كثيرة.. هناك من دفن الهيكل في شرفة المسكين وبدأ شبحه يطارده .

أقول: سيدي مهما كان العقاب بسيطًا فلابد من تطبيق القانون. وهكذا فتحت القضية مرة أخرى، كان عليَّ مقابلة ثلاثة دار الشك حولهم: بسنت سكرتيرة حازم، شكرى نائبه، مجدي مدير الحسابات. هل تدرون أن التحريات برّأتهم جميعًا، فقد كان حازم محبوبًا وعلاقته بهم جيدة حتىإن بسنت كانت تلبس الأسود حدادًا عليه.. شكري يشغل إذاعة القرآن الكريم دائمًا،أما مجدي فقد طلب نقله لفرع آخر للشركة.. وهكذا عدت لدائرة مغلقة، وأوشكت القضية أن تُغلَق مرة أخرى بعد شهر كامل من العمل المضني.

وبات التقاء حازم بي في الأحلام نادرًا.. حتى يوم الخامس من الشهر.. كان جالسًا أمامي في مكتبه.

سألته: حازم، أنا يائس يا صديقي ساعدني.

هزَّ كتفيه في حزن،ووراءه يظهر مبنى الشركة.. ثم يختفي حازم وتظهر المقابر المخيفة وفجأة يظهر الكهل مرة أخرى برأسه المهشمة وعينيه الجاحظتين فأقوم مرتاعًا هاتفًا رحمتك يا الله.

كنت من الإرهاق بحيث أني غفوت مرة أخرى وكانت أحلامي هذه المرة هادئة؛ ثمة ثوب أسود والقرآن الكريم يُرتَّل بصوت الشيخ العفاسي، فأستيقظ مرة أخرى مرددًا: أين سمعت الصوت.. أين؟

حينما ذهبت لمكتبي في الصباح، استدعانى العميد يحيى يسألنى الأخبار..
بإذن الله خلال يومين يا سيدي يومين على الأكثر.

وذهبت هذه المرة وحدي لمقر الشركة: شركة حازم، وأنا أدور حولها علّي أجد أي شيءٍمريبٍ.. لم تكن مفاجأة بالمرة أن أجد أنه على بُعد أمتار من الشركة تقبع المقابر.. مقابر محاطة بأسوار تخفيها عن الأعين مقابر مصر الجديدة.. حيث وجدت ذاك الرجل العجوز يعد لنفسه بعض الشاي وهو من ساكني المقابر بالطبع، وحينما ظهر أبنه الأصغر حاول الهرب.. وأمسكته بسهولة.. هي صدفة غريبة لا أكثر فهذا المراهق له مهنة أثيرة وغريبة هي مهنة نبش القبور.. الذيأدلى باعتراف تفصيلي أدان الثلاثة: بسنت،شكري، مجدي .

تسألني أمي: لكن كيف يا بني؟

أقول: أمي، المرأة تحزن على وفاة من تحب لذا كانت بسنت ترتدي الأسود حزنًا على حازم مديرها الوسيم الذي هامت به سنوات.. ورغم عاطفته نحوها فهو في الأصل رجل ريفي حينما يتزوج فلابد من مواصفات للزوجة، بسنت المتحررة المتبرجة بعيدة عنها كل البُعد.. أما شكري وسماعه الدائم للقرآن الكريم في الفترة الأخيرة لأنه خائف مما ارتكبته يداه وقصته مع حازم غريبة: فقد كان مديره لكن ألمعية حازم جعلته يعتلي منصبًا أعلى منه، وهروب مجدي نوع من الخوف أيضًا خاصة مع

إيجادنا اختلاسات مالية في عُهدته.

خلاصة القول إن الثلاثة أرادوا الانتقام من حازم المسكين بخطة شيطانية اقترحها شكري بإحضار هيكل عظمي ودفنه في شرفة منزله ثم الإبلاغ عنه لصنع فضيحة لحازم في الشركة.

لكن ابتزاز نبّاش القبور لهم جعلهم يتراجعون خصوصًا وهو يرقبون التغيرات التي تطرأ على حازم وظهور الشبح.

وجهت للثلاثة تهمة التحريض على نبش القبور ودفن جثة بدون ترخيص وبرِئت ساحة حازم.

كانت آخر مرة أراه في الحُلم باسمًا واقفًا في ممر أخضر ضيق يذكِّرني بشقته، يقول: "شكرًا لك"

أجيبه: لاشيء يا صديقى لكني حزين لوفاتك.

فيقول راضيًا: لكل أجلٍ كتاب. سأذهب الآن شكرًا لك مرة أخرى،ولكن هناك شيئًا..

أقول: ماذا؟

يقول حازم:هو..

أشعر بقلق: من؟

ينظر حازم خجلًا:إنه بائس تمامًا وقد تصافينا ولا ضغينة ضده. فأشعر بالقلق أكثر:مَن تقصد؟

يتنحى حازم ويظهر خلفه الكهل حليق الرأس وخلفه بناية مظلمة وشباك،أعلاها شِبه مضيء وثمة يد سوداء على الزجاج أسفلها "52 شارع بشار الملك.. جليم"

مازال القتيل واقفًا ينتظر أن أساعده هو الآخر لحلِّ لغز مقتله منذ خمسة وعشرين عامًا، لكن مَن لديه أعصاب.. مَن لديه اعصاب.. من لديه أعصاب؟

* * *

- 2 -

لا تلمس الجدران

لم أصدِّق نفسي حين حصلت على هذه الشقة الرائعة، كان الإيجار مناسبًا تمامًا وأنا أبدًا عملي الخاص. وبعد أن وقَّعت العقد اصطحبت صديقتي الأثيرة "همس" لرؤية الشقة.

وهمس اسم على مسمى بحجمها الضئيل وشعرها البني اللامع الطويل وعينها الذهبيتن. كان لها أروع عّينين رأيتهما في حياتي – أكرههما فقط حين تتسعان في ارتياعٍ منبئة بخطرٍ وشيك.

كنت أسميها بمركز الإحساس، تمامًا مثل القطة مقوَّسة الظهر منفوشة الشعر حينما تواجه عدوًا.

وذاك اليوم وهي تهمس: لا لا لا..

لها لاءات ثلاثة مميزة كئيبة للغاية حينما تنفر من أمرٍ ما،لذا تجاهلت ذعرها تمامًا وأنا أتجول في أنحاء الشقة لاتفقدها-كنت مللت هذا الذعر الوهمى ونظريتها في تلمُّس الجماد.

كثيرًا ما أخبرتنيأنها الأشياء تخبرها خبرات مرت بها وأحداث جرت عليها حينما تلمسها-مثل ذاك الشارع شهد مظاهرة -هناك رجل مات أسفل هذا المنزل -أشياء من هذا القبيل -تلك هي هوايتها.

تركتها تتحسس الجدران وتصغى السمع كما تعودت،إننا صديقتان منذ الجامعة، أي منذ عشرة أعوام ولو مضيت خلف أوهامها لجننت منذ زمن وهاهي تمسك بذراعي وهي تنتحب:

لا

لا

ولم تكمل اللا الثالثة فقد اصطفق الباب بعنفٍ والتصقت بي أرجوكِ دعينا نذهب،إنها من النوع الهش، طفلة هي وقد اعتادت حمايتي، كانت الثالثة عصرًا ونحن نخرج وهي تتحسس الحائط بأناملها وتزداد عيناها اتساعًا وثمة غيمة دمع تظللها، كانت مثالًا للبؤس التام لكن توجد لحظات تسأم فيها هذه الهمس ورعبها الهيستري.

* * *

دخلت إلى المنزل أرسم أحلامي في الهواء وأحتضن جهاز الكومبيوتر، وأعد بقية النقود ثم أحدث نفسي يكفي مكتب وعدة كراسي سأبدأ رويدًا رويدًا،أنام حالمة في مستقبل وردي.

في الثالثة صباحًا يأتيني صوتها باكيًا عبر الأثير تقول:

- أرجوكِ، ابتعدي عن هذه الشقة، ليتني أستطيع أن أخبرك.كان قد فاض بي الكيل صرخت بها أن تبتعد عنّي بخرافاتها، ويبدو أناستيقاظي المفاجئ جعلني فظة للغاية معها فينقطع الخط بغتة.

مصدومة هي -أعلم- ولكنها ستجرني معها إلى الانهيار، لكن حين أتذكر ما حدث ينتابني الندم الندم الكثير.

* * *

استيقظت مبكرة كنت أعد نفسي لرحلة الشقاء مسرورة بمكتبي الجديد يتملكني الأمل، لقد عملت لدى عدة شركات استغلت جهدي وعرقي، لكن لا بأس فقد اكتسبت خبرة هائلة ويجب أن أستثمرها لصالحي.

افتتحت المكتب وبدأ العمل وقد رحّب بي الكثير من العملاء وكان الأمر مثمرًا وفاق جميع توقعاتي.

ومع نهاية الشهر الأول صار لدي موظفون: منى ومحمد، وبعد أسبوع أتت سها سكرتيرتي الخاصة وهي صاخبة كالشلال على عكس منىالوديعه ومحمد الهادئ ودارت عجلة العمل وانشغلت تمامًا ونسيت حياتي ونسيت همس نسيتها تمامًا وهي لم تتصل مطلقًا. ولنقلإن الأمر راق لي تمامًا. لست أنانية لكن لم يكن لدي وقت لأسير في أطياف أحلامها.

لم أتساءل أين هي ولم أهتم، وانشغلت بعملي حتى النخاع من التاسعة حتى السادسة ما عدا محمد يأتي في العاشرة وينصرف في الثامنة، إلى أن جاء يوم أصاب الطابعة الخبل واستغرق الأمر طويلًا في إصلاحها حتى جاوزت الساعة الثامنة والنصف، كنا أنا ومحمد في المكتب وحدنا كان يبدو مهمومًا مشدود الأعصاب، سألته وأنا ألملم أوراقي بصوت حازم: هل هناك مشكلة؟

قال بهدوء: حتى الآن لا -ثم اصطفق الباب بعنف فتذكرت بغتة همس، لكني غممت لابد أنها ريح قوية.

تردد وهو ينظر إليَّ وجِلًا: إننا في أغسطس لا ريح على الإطلاق، بماذا يذكرني هذا الأحمق، لكن عنادي دفعني لأن أصرخ بكلمة:

لالالالالالا

اصطفق الباب بعنف أكبر

ارتعت وأنا أقول: ما هذا؟ أي لعبة سخيفة هذه؟

كنت خائفة، لقد ارتعشت في داخلي.

لم أفق إلا على صوت محمد الخائف - لا خطر،إنهم يخبرونا فقط أن نرحل،إنه مكتبنا حتى الثامنة بعد الثامنة انصراف.

ضحكت بعصبية: هراء كل هذا هراء..

كنت أكره التخيلين ونظريات العالم الآخر واستعدت رباطة جأشي وأنا أخبره:

لدينا ضغط عمل سنعمل حتى التاسعة غدًا

وقف مترددًا: ولكن...

- ولكن ماذا ؟؟؟

- إن مني...ولم يكمل

- أه تقصد أبوها لن يقبل.

لا بأس

يكفى أنت وسها أن بيتها قريب

أؤمأ موافقًا

وكان هذا خطأ آخر

* * *

عدت إلى المنزل واجمة، وكان الجميع في الإسكندرية للمصيف أه من حر أغسطس القاتل كم يبعث الضيق إلى النفس.. يا له من ملل دفعني في الواحدة صباحًا أن تجريأصابعي على أزرار التليفون لأطلبها بعد عام كامل، أتاني صوتها حزينًا عبر الأثير أخيرًا تذكرتيني كيف أنت وكيفأحوال خالتك لأن أمها وأباها متوفيان، أتاني صوتها منتحبًا مفعمًا بالأسى"

البقاء لله

منذ متى لماذا لم تتصلي؟

فعلت ولم ترد.

تملكني شعور بالأسف لبؤس الصديقة أنا يا للأنانية

لا تحزني حبيبتي همس، أنا لن أتركك أبدًا بعد الآن.

ولكنك متأخرة متأخرة للغاية لم يعد في أمكانك فعل شيء.

أعلم أني لأن أعيدها للحياة، ولكن

أنت لا تفهمين

إنك متأخرة للغاية

اسمعيني، لابد أن نلتقي سآتي إليك

لا سآتى أنا إليك غدًا، سأمر عليك في المكتب

حسنًا إلى الغد أنت تعلمين المكان

أكيد أعرفه جيدًا جيدًا جدًا

غريبة هذه الفتاة

* * *

أتى الصباح كنت مرهقة للغاية لكنه يوم عمل آخر،حقًا كان يومًا شاقًا وقد ذهبت منىعند السادسة وبقينا أنا وسهاومحمد نعمل حتى قاربت التاسعةوسمحت لسها بالانصراف، وقد مرت الأحداث هادئه وأنا أنظر لمحمد بسخرية ولم تظهر أشباحه بعدها، لقد تجاوزنا الثامنة"شكلهم بيصيف".

ابتسم لدعابتي ، ثم رن الهاتف بغتة، كانت سها:

- معذرة هناك أمر غريب رأيته وأنا خارجة من البناية

- ماذا؟

هناك فتاة تقف في الشرفة.

وأمسكت الهاتف المحمول وأنا ادلف إلى الشرفة وسها ترمقني من أسفل

- لا أحد

- ولكن أراها بجانبك، إنها فتاة صغيرة، بنية الشعر.

اقشعرَّ بدني ثم نهرت سها

اذهبي كفاني اليوم منكِ.

يبدو أن معظم الفتيات لديهن وسواس قهري

سألني محمد: ماذا هناك؟

أخبرته بأمر سها، لاحظت ارتعاشة أهدابه..

ياللسخافة هذا ما يتفصني.

تنحنح: لقد أنهيت عملي هل لي أن انصرف؟

- كلا.

انتبه لارتعاشي.

انتظر قليلًا، إن لي صديقة ستمر عليَّ في التاسعة والنصف.

تحت أمرك.

خيل لي أني أسمع رنة سخرية، ثم رن الجرس وذهب ليفتح .

هناك كانت تقف صامتة. التفتُّ إلى محمد: لك أن تنصرف وكانِ هذا خطئي الأكبر

التفت إليَّ وقال: عمتم مساءً.

كنت أريد أن أحتضنها، لكن تللك النظرة الثلجية أخرستني.

وقفت أمام النافذة، كانت هادئة ولم أنتبه،شعرها البني أصبح أحمر ولم ألاحظ.. عيناها الدافئتان صارتا ثلجيتين ولم أهتم.

كانت ترتدي السواد وقد اصطبغت أناملها به وهي تكره اللون الأسود ولم أرتَع.

لقد عطَّل توتري كل حواسي.

تمتمت: لقد افتقدتك كثيرًا.

حقًّا؟

بالطبع.

جلست بهدوء:

ليتك لم تفعلين..

لم أفعل ماذا؟

هذه الشقه اللعينة

ها قد عدنا، لقد بلغ توترى أقصاه، وقلت لها بعصبية:

-ظننتك قد تغيَّرتِألا تنظرين؟إني ناجحةافعلي لنفسك شيئًامفيدًا بدلا من إرعابي.

ثم صرخت فيها: انصرفي أنت لا تجلبين سوى الأسى.

وأمسكتها بعصبية من ذراعها وأنا أصرخ فيها: انصرفي..

وكان هذا خطئي الأخير والشنيع، أمسكتني هي صارخة قائلة:

- مجنونة أنت بقوتك، غارقة أنت باحلامك، هيًا المسي الحوائط معي، ادخلي عالم لم تدخليه من قبل.

كنت أسيرتها وهي تجرني جرًا.. من أين أتت بهذه القوة وهي تجبرني أن اتحسس الحوائط يالا لعذاب البشر حينما يخترقون الأستار- يموج بي المكان لقد تحول إلى شقة سكنية، ثمة رجل يأكل بشراهة وامرأة قائمة على خدمته وطفلة صغيرة ترطب شفتيها من الجوع بشعرها البني الرقيق وعينيها الذهبيتين، تندفع نحو الطعام يركلها الرجل بعنفٍ، تحضنها المرأة وتذهب بها لحجرة أخرى ثم تمضي لحالها، تخرج الطفلة صورة لرجل يشبها كثيرًا هامسة" أبي الحبيب، خذني معك".

أكمل **تحسس الحوائط** معها.. يوم آخر،المرأة باكية والرجل يضربها بعنفٍ ثم تنتحب بصمتٍ، فجأة يربت عليها الرجل طالبًا منها شيئًا.

يرمي لها نقودًا، تمضي مسرعة كي تشتري شيئًا.

أكمل تحسس الحوائط

الرجل يحنو على شعر الطفلة، يأخذها في أحضانه، والطفلة تتملص لأنها شعرت بحضن الذئب، ولكن الذئب لا يرحم،والضحية طفلة صغيرة بنية العينين ذهبية الشعر.

<u>الجدران</u>

ياللألم أن تشاهد عذاب الآخرين شيءٌ،وأن تسمعه شيءٌ آخر ياالمأساتك يا همس ..

لكنها تمضي وتكمل تحسس الحوائط

الساعة تشير إلى الثامنة إلا عشردقائق والرجل عاري الصدر يشرب شيئًا ثم يرتخي، المرأة تجذبه للحمَّام ..أه من الضعيفة حينما يتملك الأسى والحقد قلبها، تضعه في المغطس تنزل المياه حتى تغمره ثم تندفع في جنون لتزل رأس هذا الآثم في الماء، يستقيظ تندفع نحوه بكل قوةتجحظ عيناه ويرتخي، ترتمي المسكينة لاهثة تزحف عبر الممر تندفع الصغيرة نحوها وترتخي اليدان ويتوقف القلب الخافق عن الحياة الساعة الثامنة تمامًا.

تترك همس ذراعي،أرتجف كورقة شجر ثم تمضي تاركة إياي، شلني الرعب،وخارت قواي.

أراه أتى من الحمَّام، تصطفق الأبواب مهترئ الجسد، أصرخ ويغمرني الظلام.

لالالالالالالالالالالالا

* * *

بعد شهرين أجلس في حديقة ما، تجلس أمي تطعمني كطفلة، يزورني محمد وسها ومنى ليخبروني عن أحوال العمل، لا أهتم أهتم فقط بهمس، تأتي كل يوم بشعرها البني الرائع وعينيها الذهبتين لنمارس هوايتنا في تحسس الجماد أه كم يخبرنا بأهوال.

* * *

قصة قرية مسكونة

الإبريق الأسود

أعود للقرية هذه المرة في العشرين من عمري وقد توفت الجدة الحنون التي طالما تجمعنا من أجلها، يرافقني هذه الصيف ابن عمي سمير، نجلسذاك المساء في حديقة الاستراحة الريفية المطلة على النهر العذب ثم يأتي عبدالصبور الحارس الصعيدي ليبدد ملل الليل الطويل.. ونجد فيه ضالتنا ليحكي لناعبد الصبور عن قرية أخرى وبلدة أخرى تقع فيأعماق الصعيد بلدته هذه كنا نسميهاعلى حافة الهاوية..هو كان يسميها "هاوية الجبل" قرية خاملة في أقصى الجنوب بين النهر والجبل بلا مرافق، بلا شيءعلى الإطلاق، خافية عن أنظار البشر،هناك لا تمثل القرون شيئًا يُذكَر لديهم فما بالك السنين والشهور.

يحكي عبد الصبورعن البتاو كما يطلق عليه والجبن القديم ثم يمصمص شفتيه متلذذًاومتذكرًا وجبته

الشهية.هذه بينما يضحك سمير في سره من سذاجة الرجل وألكزه بمرفقي، يصمت ليعود عبد الصبور ليحكي:

كانت هناك، اسمها سالمة،كان هناك اسمه عبيد.

هو في السابعة عشر بعد، فتى غض، يخطو نحو أوا ئل الشباب.. هي بعد، في الحادية عشر تلك السن الحارة. ليست طفلة وليستفتاة، وكاذب من يخبرك أن النساء في الجنوب ينضجن سريعًا،إنهن فقط يخضعن لقانون

القبيلة لا أكثر والقانون: الفتاة لابن عمها.

وتحدد موعد الزفاف بعد هطول الأمطار وحصاد الزرع، أي بعد أربعة أسابيع. هو حالم بها متعطش لها.. هي لاهية بلعبتها القطنية المغبرة تنهرها الأم لجلب الماء من البئر..فتذهبالفتاة الطفلة ساخطة ساخطة.حاملة إبريقها الأسود الثقيل لتجلب به الماء، للحق كان ثقيلًا من الحديد وكانت تحمله بكل همة.وحين تتأخر يدق قلب أمها هلعًا على الطفلة الوادعة.

في ضوء النهار الغارب، يخرج الأخ الأكبر ثم يعود مرتاعًا.. لتخرج معه البلدة عنبكرة أبيها بلد نكدةً هي.. ألم أخبركم، يغمم عبد الصبورفي حزنٍ ويكمل:
في ضوء المشاعل ترقد هي والإبريق في جوف االبئر وقد تهشمت رأسها تمامًا..

أي إنسان عاقل يرتاع أمام المشهد..يردد عبد الصبورمرة أخرى:ألم أقل لكم،هذه بلدة تطرب للمصائب.

أسأله في لهفة: هل وقعت؟ يا لها من مسكينة!!!!!!

يضحك عبدالصبور في خبث: كنت هناك شاهدت الأمر.

أسأله في رجاء: أكمل أرجوك، هل قتلت؟

يتجاهل كلامي ويكمل، بعد موتها، قالوا:لقد غسلوا عارهم.

أقول مستنكرًا:

- تلك الطفلة الغريرة.

فيقول مكررًا: نعم،كانت طفلة ماتت أمها غمًا وحزنًا، ليس من أجلها وحسب، ولكن ما قيل بشأنها،لقد صدَّق الأب وصدق الأخ لغط الناس في شرفها. فقط لأن البلدة تريد شيئًا تعبث به، يقطع ملل السنين. ماتت الأم لتلحق بعد ابنتها بشهر أو يزيد،لتقبع معها منبوذة في قبر قصي بلا شاهد.

أغمم: يا لها من مأساة!

- بل واقع يا بني.

- والفتى؟

- عبيد؟

- نعم.

- تزوج بعد عام أو يزيد في احتفال كبير،أنت تدرك أنه لا أهمية للوقت هناك وبعد ذلك تركت القرية عدة سنوات.أغمم في إحباط:

يا لها من مسكينة.

يقفز سمير متمملًا وهو يقول في سئم: قصة مملة. أين أنت من حكايات الجدة؟ يغمز عبد الصبور في خبثٍ لكن القصة لم تنتهِ بل بدأت. عدت بعد سنوات لأجد القرية غارقة في قصة جديدة .

ذات صباح، وجدت توحيدة عمتها سالمة إبريقًا أسود حديديًا ممتلئًا بالماء أمام منزلها، وحين اقتربت منه اختفى ولأن لكل ممتلكاته في البلدة فقد عرفت المرأة لمن الإبريق ثم توالى ظهور الإبريق واختفائه أمام كل منزل وتعددت القصص وعادت القريةلسيرتها الأولى تلوك سيرة سالمة وليت القرية النكدة هذه اكتفت ياليت، فما حدث كان مريعًا. ينصت سمير باهتمام،ويسأل:ماذا حدث؟ يكمل عبدالصبور وهو يحرك النار بتؤدة حولوعاء الشاي.

ثم توالت الحكايات..حكايات عن شبح الفتاة تغني بجانب البئر،انتشرت حكاية الشبح كالهشيموارتاعوا أيما ارتياع ثم اقترح أخبثهم أن ينبشوا قبر الفتاة ليتأكدوا أنها ترقد في قبرها، وقدفعلوا.

هتفت: يا الله! أي شر يحيط بهذه البلدة يتلذذ عبد الصبور بارتياعي ويقول:

لقد تسببوا في ذلك العبث الشيطاني،الذى اجتاح كل شيء وصار حقيقة؛ فحين تغرب الشمسويحل الظلام يبدأ احتفالها الخاص، الخاص للغاية،صرخات الليل تزداد، طرقات على كل الأبواب.لقد دفعوا الثمن غاليًا لقد عادت لتنتقم.أسأله في خفوت: وهل حظيت بالانتقام؟

يغمض عبد الصبور عينيه: بل أكثر يا ولدي، لقد أحالت القريةإلى جحيم، كانت تسير في الطرقات ليلًا،حيث يسمع بوضوح صوت الإبريق

الأسود وهيتجره. تمشي في تؤدة في كل طرقات البلدة ثم تختار الدار التي تطرق أبوابهابعنفٍ كان لكل بيت دور،دون تسلسل،دون أدنى توقُّع،لم يكن أحدٌ يجرؤ على السير ليلًا في البلدة.

نهض سمير فاردًا جسده في كسل،مجرد شبح هي، لقد هزمتكم مخاوفكم عبد الصبور: لا ولدي لم يجرؤ أحد على النظر طويلًافي عينيهاالمجفوتين، لقد جعلت الخوف جزءًا من شعائر البلدة المشئومة، وإبريقها الأسود المتعطش دومًا للدم، كانت تطرق على الأبواب بحثًا عن قاتلها.

أقول له كان من الممكن أن تساعدهم وتدل على القاتل، وأكمل في شك:أخبرني لماذا صمتت؟ ليسكب العجوزبقايا الشاي ليطفئ النار المتوهجة ويقول: وهل يصدق أحد أن حارس الحمل هو قاتله؟

-ماذا تعني؟ هل هو خطيبها ابن عمها غير معقول كيف؟

-كانت هناك طفلة غضة وحيدة عند البئر، لم تدرك أن الذئب يتخفى تحت جلد عبيد اعتبرها له، هكذا سيكون بعد أسابيع، فلِم لايأخذها الآن ولكنها قاومت وصرخت، بل ودفعت إبريقها الأسود في وجهه. ساعتها استعرت نيران الذئب وتحولت الرغبة إلى قتل،بعنفٍأمسك الإبريق وانهال على رأسها ثم ألقاها هناك في جوف البئر يرنو عدالصبور ببصره للسماء وكنا قبيل الفجر ويكمل :

في تلك البلدة الآثمة، لقد ارتكبت الطفلة أفظع الجرائم في عرفهم بأن ضربترجلًا ثم عاد شبحها ليحيل حياة الرجال سوادًا. أسأله في خفوتٍ: وهل زفرت بقاتلها؟

-لا يا بني، ليست كل النهايات سعيدة.

لقد هربوا جميعًا، ارتحلو ولّوا وتركوا خلفهم كل شيء،ومازلت هاوية الجبل على حالها مهجورة،

فقط البائس من يمر بها ليلًا..فقط البائس من يمر بها ليلًا.. عندئذ يصمت الرجل المكدودويتنهد في صمت لا يقطعه سوى صوت سمير:

-هراء كل هذا هراء، لقد هزمتكم مخاوفكم، فأمسك بذراعه بعد أن لمحت الحزن على وجه عبد الصبور وأقول: هيًا يا سمير لنتوضأ فقد اقترب الفجر، فيمضي معي وهو مازال يردد في عنادٍ: هراء كل هذا هراء إني مستعد للذهاب لبلدته هذه بلا أدنى خوف.

أعلم أن سمير لا يعترف بهذه الأشياء فلا أجادله .

حينما ننتهي من الوضوء أنادي عبد الصبور ليصلي معنا فلا يرد سوى صوت الحارسين الآخرين: فرج وبديع،

وقد أتيا على ندائي فأسألهما أن يخبرا عبد الصبور ليصلي الفجر. ينظران إلينا في وجلٍ وصمت ثم يتنحنح أقربهما ليقول:

- عبد الصبور من يابيه؟

يردد سمير في سخرية: الحارس،أليس لدينا حارس اسمه عبد الصبور؟ فيقول فرج: بلى لكن...

أسأله: لكن ماذا ؟

يتمتم بديع: لقد مكث هنا أربعة أشهر فقط وتوفى منذ عام، لقد دفناه في الجهة الأخرى من النهر، لقد كان عجوزًا للغاية .

على الضوء الخافت ألمح نظرة الرعب على وجه سمير الأبيض الشاحب بعد أن أدرك أننا كنا نجلس مع أحدأشباح هاوية الجبل.

* * *

الفهرس



Noon_publishing@yahoo.com

ت-35860372-02   011-27772007

قد تسمع و قد تقرأ عن أولئك
الموجودين -رغم من ينكرهم-
الأمر يختلف كثيراً عن لقائهم
وجها لوجه!




ISBN 9789777780094
9 789777 780094

